

فلسفة الجد والهنزل

لأبي عثمان
عمرو بن بحر الجاحظ

قدم له وشرح لغوياته
الدكتور الشيخ محمد علي الزعبي



طبعة ونشر

دار الشؤون الثقافية العامة، العراق - بغداد

رئيس مجلس الإدارة :

الدكتور محمد جعفر الموسوي

تحتوى جميع المراسلات

باسم السيد رئيس مجلس الإدارة

المستوفى

المصطفى محمد - اعلمية

ص. ب. ٥٠٣٦ - تكليس ٦١٤١٣ - هاتف ٤٤٦٦٠٤٤

مقدمة

شجرة من منجم الجاحظ أو رميلة من ساحل ابن بحر

لا أدري بأي ناحية من نواحي أبي عثمان عمرو بن الجاحظ
أبدأ ، وكل نواحيه جديرة بالإعجاب فمن راجع كتبه ازداد
توقاً وتهيباً وإعجاباً كلما ازداد استيعاباً وإطلاعا ! فكأن اللغة
اسلته دقتها ومنعته زمامها وبعته على الطاعة ، فتصرف بها
دون ان يخشى عثرة ولا كبتة ، وأرانا لكل بحث ألفاظ
ولكل حقل اصطلاحاً ولكل مدخل فكر مفتاحاً و (لكل
مقام مقالاً)

ولذا أخذت هذه الروعة قلب ابن العميد فانطقته كلمته
(كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً) اذ رأى بكل
سطر ما يحمل على الاستزادة فأخرجه جبار نثر وأسلوب في
قديم تاريخنا وحديثه .
ولئن كان مجموع الناس لا يعرفون تركه أبي عثمان فإن جميعهم

يعرفون اسمه ويعرفون تنقاً عن البصرة ، العش الذي درج منه
ابو عثمان وأترابه اعلام العرب وخدام لغتهم وديوان شعرهم
وواسطة العقيد بين جاهليتهم واسلامهم والأصمعي والخليل
واللازني وابن دريد ...

اصعد وانظر السماء

مزح ابو عثمان - كعادته - مع امرأة طريفة قائلاً : (انزلي
كلي معنا) فأجابته (وكان قصيراً دميماً) (اصعد وانظر
السماء) ... (انزلي وانظري السماء) ...
ما أجدرنا نحن الذين (شغلنا أموالنا وأهلونا) وحالت
بيننا وبين التمتع بتركة ابي عثمان وقادتنا الدنيا بسلاسل مادتها
وأحكمت على أعناقنا أكفاناً صفيقة سداها الأنايات ولحمتها
مطالب الجسد ودفنتنا في نواويس الرجاء المتهار الخيفة .
ما أجودنا بتحطيم هذه السلاسل وتمزيق تلك الأكفان
ومحاربة تلك النواويس ، لنشعر ونخرج متصرين ظافرين
ونصعد ونرى السماء .

سماء الفكر الخالد ، سماء أبي عثمان الذي مثل دور المرأة
فمكس علينا صورة عصره وجاء شعاعها دائرة المعارف

الجاحظية التي أودعها فكره به أن صيره مداداً وأطلقه بين
النعم (ليملا الدنيا ويشغل الناس) !
مساكين !

مساكين الشعراء الذين لا يتركون ألسنتهم إلا اذا لمع
أمامهم أو في خيالهم المال ، ساعهم الله إذ هم (في كل واد
يسمون ويقولون ما لا يفعلون) على قولهم في بعض الملوك :
هو البحر من كل النواحي أتيته

... فليجته المعروف والجود ساحله
ساعهم ، إذ لو أدركوا معنى خلود الفكر وفلسفة العقل
الخالد وحلّقوا فوق المغربات الموقنة لادخروا هذا الوصف
للبحر وابن البحر أبي عثمان الذي أغرقهم وأغرق سواهم من
العرب والعجم ببحر من الفكر عذب فرات لا يزال يند
القواصين بلؤلؤ الفكر ومرجان التحقيق .
اجل ، محيط بحرك الفريد يا أبا بحر يصلح للغوص والعموم
في كل زمان ومكان فهو جديد قديم يسامر الدهور ويعايش
العصور .

لقد سبقت ابن خلدون في تصنيف الرواة وعلمته كيف
يتخذ التحقيق وسيلة للتمحيص والتصفية ويسقط على معرفة
العلل والأسباب ليصدر الحكم المبرم على مستقبل الأمم ويعمل

ارتفاعها وهبوطها !

وسبقت ذوي المذهب الفلسفي التجريبي وعدلت الفكر
السوفسطائي الذي اتخذ الشك وسيلة لهدم القيم ومررت من
بعدك امثال الغزالي وديكارت على اتخاذ الشك درجة أولى من
سلم اليقين ، فاستعنت بالحواس ، بعد ان جردتها من العصمة ،
ولجأت للتجربة والعيان وجعلتها شرطاً سادساً لدرجات التيقن
الأفلاطونية الأربعة !

وسبقت علماء الطبيعة الذين لا يقررون شيئاً إلا بعد
تجربته والتثبت من صحته واستنتاج قوانينه من ظاهراته التي
لا يرقى لها الريب ، ففرت وحدك في ميدان زهات خيول
الحلبة وأصبحت كلمتك (ليس يشفيني إلا المعالجة) مصباحاً
يسير بضوئه ذوو الفكر البعيد والنظر الثاقب من علماء الطبيعة
والكيمياء وعلم النفس بل أصبحت دستوراً للأعلام ومنهاجاً
للأساطين .

الغابطون والحاسدون

لقد فقت (لا سيما في كتابك الحيوان) ما جاء به ارسطو
ووضعت يدك على اخطاء لو رآها الذين ينظرون بعين العصمة
لكفكفوا من غلوائهم ووقفوا طويلاً ازاء قولك (زعم

صاحب المنطق) ! بل عاجلت ما لم يعالجه احد من السلف ولم
يعرفه بعض الخلف إلا منذ اخذت الشمس تشرق من مغربها
وتتكرر لشرقها الطبيعي وتتلصص أنها عبال عليه لا سيما في
بحث الحيوان .

ولذا غبطك عليه السابقون واللاحقون والمعاصرون
وسيفبطك الآتون وسينشدون مع الزمن (الفضل للمتقدم)
وحسدك عليه محبو العاجلة وفضموا اناملهم حقداً وماقوا
غيطاً وكمداً .

ولا غرابة فانت ابن البحر الذي سواحله الطرائف
واللطائف ومرجانه كتابا (الحيوان ، والحاسن والأضداد)
وما اليها من الكتب اليتيمة .

اجل حسدوك وتهيبوك وما ان انقضى عليك ثلاثة أيام
في ديوان الخاصون حتى كان شعارهم (ان ثبت الجاحظ في هذا
الديوان أقل نجم الكتاب) ولذا اشبعوك لسعاً ونهشاً وقضم
لحم وإساعة دم فخرجت زاهداً بالحطام مسجلاً على سببائه
عابديه : (شعارهم الملق قد ليس قلوبهم الرعب وألقها الذل) .
ثم مات الغابطون والناسهشون واللاسعون واللدغون

وعشت وحدك في قلوب الذين يقدررون الفكر والسبق !
لقد عرفت الحاسدين بسهامهم وتغلغل في اعماق نفوسهم ففقدت

بقواعدك الكلية : (وما لقيت حامداً إلا تبين مكنونه
بتغيير لونه ونحو عينيه) .

فتفدت لما يكونون وكشفت ما تنطوي عليه صدورهم
وزحت اغطية قلوبهم واذعت ما يدور في خلدكم فمنحتنا حجر
الصائغ الذي يعرف به سليم النقد من زائفة واعدت لأذهاننا
مغزى بيت أبي العتاهية :
ثوب الرياء يشف عما تحته

وإذا التحفت به فإنك عار
بل شرحت معنى كلمة (المعاصرة حرمان) فكنت إذا
ألفت كتاباً نقيساً ونسبة لنفسك رأيت من الحاسدين إغراضاً ،
وإذا ألفت كتاباً واذعته خطيراً ونسبته لسواك - ولو من
الذين لا يبلغون شأوك - وجدت من أولئك اللاذعين الموقورين
اقبالاً وتشجيعاً بل تقريظاً وإطراءاً !!

لعمري يا أبا بجر ، أي موضوع تطرقه ، أي بحر متلاطم
لم تحضه ، لقد كتبت في جلائل الأمور : (الحيوان ، الفلسفة ،
الحساب ، الهندسة ، علم النفس ، الفلك ، الأدب ، اللغة ،
الاخلاق ، اصناف الانسان) ... ولم تنس الضحك والاضحاك
والتهكم وما يستعذبه القارىء والسامع ويتخذانه عصا
يتوكان عليها لتجديد النشاط وطرد الملل والسأم ،

فكأنك أبو القلم واخ القرمطس وأبو يحدة - أو شيخ
يحدة - الفكر .

ولا عجب فقد تبثت للعلوم مذ رأيناك تمحو اللوح في
الكتاب بأناملك الناعمة ثم رعرعت وأصبح هلاكك بدرأ
منتقلاً من حلقة حلقة ومن سارية مسجد لسارية واستجبت
هاتف النهم العلمي وضربت أكباد الإبل طالباً محققاً حريصاً
على اقتناص الفوائد وتقييد التوارد هابطاً اغوار بلاد العرب
صاعداً شقاها ونجودها معرجاً على دمشق ومصر وانطاكية
والاناضول لا ترى كتاباً الا تستوفيه قراءة وتستوعبه ادراكاً
مسجلاً قرناً من العمر يذكركم بالكلمة النبوية (خيركم من طال
عمره وحسن عمله) ثم جعلت ختام الحياة مسكاً فأخذت
تستأجر حوانيت الوراقين (المكتبات) لتسقط اكداً
الكتب على جسمك الذي ارمقته فأخذ يموت نجوماً (تقسيطاً) !
وتكتب بدمك وبقايا انفاسك درساً نقش في سجل العقل
الكلي .

اجل شذرة من منجمه ورميلة من ساحله اذ ليس لمثل ان
يعرف بالاعلام لا سيما وأبو عثمان في غيلة كل من تمتع ولو ببعض
الذوق العلمي وسقط على تعريف الأدب .

ولا اعني بكلمة الأدب هنا ما يعنيه الاصطلاح المعاصر
الذي يرى من زاول القريض او مارس المقامات وحبر المقالات
أديباً ، بل ما يعنيه القدماء اذ يرون كلمة صالحة للاطلاق
على من ساهم بعدة فنون وعرف من كل فن احسنه .

لعمري ومن اجدر من ابي عثمان بهذا اللقب الا تعجب حين
تقرأ له عشرة المواضيع وتتخيل حين مطالعة مطلق موضوع
ان كاتبه لا يعرف سوى الفن الذي عالج !

بل الا يتضاعف عجبك واعجابك حين تعلم ان ابا عثمان
امدنا بعشرات الكتب والرسائل وتراه مكتبة كبرى تجسدت
رجلاً او رجلاً استوعب مكتبة .

هذه الرسائل

هذه الرسائل التي نفخر بتقديمها الآن للقراء ، صيد - من
أجمة الجاحظ - سمين وغذاء من حقله نفيس وسارية يرفرف
عليها علكم البيان ودعامة يعلوها مصباح ينير البصائر واسطر
يكن بها تعبير سليم وسبك بليغ وتوجيه قديم ، ونواة تتجسد
نحلة المروءة وكرم النفس ونبل الشعور .

هذه الرسائل تذكر بتعريف البلاغة : (الكلام البليغ هو
الذي اذا سمعه الشخص خال انه يستطيع الاتيان بمثله) .

هذه الرسائل خالية من التعقيد اللفظي والمعنوي ، كأنها
سبقت اسلوب هذا العصر الذي يحرص على أداء المعنى بريئاً
من التكلف الذي غزانا بعصور الضعف والانحطاط وانتزع من
ايدينا لذة قذف المعنى بنفس السامع بكلمات موجزة سهلة .

أنظر الایجاز وبلوغ المراد بأن واحد كامين بهذه الرسائل
مرسومين بريشة ابي عثمان بهذا النص (الصدق والوفاء توأمان ،
والحلم والصبر توأمان ، بين غم كل دين وصلاح كل دين
واضدادهم سبب كل فرقة وأصل كل فساد ، ولعمري ما
غلطت الحكماء حين سمّوها اركان الدين) .

هذه الرسائل خلاصة ما عرفته الأجيال التي سبقت الجاحظ
والتي تلت من الحكمة والساد والنصح المنبثق من وعي
وتجربة ، وبما يزيد في رونقها ويضاعف جمالها ، ترصيعها
بالآيات الكريمة وزركشتها بالاحاديث الشريفة والاستشهاد بها
استشهاداً يكاد يريك إياها انزلت خصيصاً لما اراده الجاحظ ،
هذا الى جمال الاسلوب وروعة التركيب فكأنك حين مطالعتها
تعد الدنانير التي لم تحالطها الزوف !

واني اتحقق ان الناس لو عثروا على هذه الرسائل منذ قرون

لألقوها بالكتب التي لا يستغني عنها اديب او مثاوب واتخذوا
العثور عليها دينهم والسقوط على ضالتهم .

هذه الرسائل جوهرة مكنونة لم يزدها مر السنين مخدرة
الاصفاء ولمعاناً ، وقد مرت الدهور والأعصر وهذه الجوهرة
دقيقة الاصداف خزينة المكتبات حبيبة الحريصين على اقتنائها ،
ثم استدار الزمن فأخرجت الأرض دفائنهما والاصداف
مكنوناتهما والحزن حباثتها فخرجت المكنونة اليتيمة تذكرنا
بقول الحريري :

وطالما اصلي الياقوت جمر غضى

ثم انطفى الجمر والياقوت ياقوت .

هذه الرسائل آية في الاسلوب اليتيم والسهل الممتنع ، ولئن
شاهد القارئ بعض ألفاظ قد تعقد المعنى أو تعثر السير
وتعترض السياق ، فارجو ان يراها من يد النساخ الذين اصبحت
تركة الجاحظ بينهم مشاعاً وقد كفرنا عن أخطائهم بالتحرز
منها .

ولا بد لنا في الختام ان نستوقف القارئ إزاء نقطتين :

١ - ان العظماء امثال أبي عثمان ، اذا كتبوا نصيحة او

توجيهاً او تقويماً لشخص ما لا يقصدونه وحده بل يودون لو
أصبح ما كتبوه دواءً يتناوله كل من انتابه ما انتاب المقصودين
به اولاً ، أو إكسير ينقذ الذين عضهم ناب الجهل أو عدم
التجربة ومصباحاً ينير السبل ويطرده الظلمة وينشر من اجداث
الحيرة ويقلل من ثمرات التردد .

فاذا ما وجه ابو عثمان رسالة لابن ابي دؤاد أو سواه ،
فإننا لا نراها وقفاً على من وجهت له او لهم بل نراها أشعة
شمس تغشى القصور والنجوم والأغوار واليباب وخبوط فجر
يتلقاها السارون والمدجون والمعرسون .

٢ - إن يد التطور وقانون تغير الاحكام بتغير الأزمان
لا تنال من النواميس الثابتة الخالدة مثل (الصدق فضيلة ،
الجهل منقصة ، الاسراف مثقلة ...) فاذا شاهدنا ابا عثمان
يحض على التمسك بمكارم الاخلاق ويحذر من مغبة
التدهور والزلق ... فلا ينبغي لنا ان نقول : كان هذا دواءً
لعصره ، ونمثل دور السوفسطائيين الذين هدموا النواميس
الثابتة بمعول التأويل ومسحوا غار الانحراف والتفاضل بقاعدة
(لا ينكر تغير الاحكام بتغير الأزمان) اذ نواميس الاخلاق
كنواميس الطبيعة .

عند الرسائل ، أسماؤها ، موضوعها

أربع رسائل تدعى :

١ - رسالة المعاد والمعاسن ، في الأدب وتدبير الناس ومعاملاتهم .

٢ - رسالة كتمان السر وحفظ اللسان .

٣ - رسالة في الجد والهزل .

٤ - رسالة فصل ما بين العداوة والحسد .

هذه الرسائل الأربعة يشملها اسم (رسائل في الأخلاق الحمودة والمذمومة) أرسلها أبو عثمان لابن دؤاد وابن الزيات لتكون دستوراً أخلاقياً ومصباحاً اجتماعياً يستضيء به هذان الوزيران ومن نهج نهجها في تدبير الممالك ، إذ الأخلاق ، كما يراها علماء الأخلاق سارية يرتفع عليها علم الأمة ما زالت قوية مدعمة بالمكارم وينخفض ويهيب جناحها ما جنتحت وتنكبت النهج القويم والصراط المستقيم .

ولا بد لنا - قبل تقع الغلة برسائل الأخلاق - أن نأخذ لحظات من وقت القارئ لنقف على شيء من تعريفها لغة واصطلاحاً .

الأخلاق ، لغة واصطلاحاً

الخلق (يفتح الحاء) هو التركيب العضوي أو البدني أو

الجبلي كيباض البشرة أو سوادها أو خلاستها ، أو طول القامة أو قصرها ، أو سواد العين أو زرقتها ... وما إلى ذلك من صفات حسية .

أما الخلق (بضم الحاء) فبمعنى ما نصفه بـ (ذوي الصدر الرحب أو الضيق أو السهل للين ، أو الوعر القاسي ...) وما إلى ذلك من صفات معنوية .

ومع اتفاق الباحثين في كل زمان ومكان على أن الله أودع في الإنسان وكيلاً عنه (العقل) وجهته بما ندعوه مكارم الأخلاق ، اختلفت كلمتهم في تحديد أو تعريف كلمة أخلاق فدعاها بعضهم : علم العادات ، علم السلوك ، علم الخير والشر ، علم الواجبات ، علم القواعد التي تحمل على فعل الخير وتجنب الشر وتدفع للمثل العليا ، علم القواعد التي تسيّر عليها الردة المرء الكامل في أعماله ليصل المثل العليا ... ثم أوجزوا التحديد والتعريف قائلين (قواعد عملية تحدد سلوكنا وتوجهنا لما نفعل بأحوال مختلفة) .

والأخلاق ، على مطلق تحديد أو تعريف ، أعمال إرادية صادرة عن تفكير ندعوه تخييراً كحركة يد الشخص السليم ورجله ولسانه ، أي تشمل ما يقتضي ثواباً أو عقاباً ، أو مدحاً أو قدحاً ، ولا تشمل بحال نما ، ما ندعوه تسييراً ،

كحركات القلب ورمش العين وحركات الطفل وحركات المريض : جسماً او عقلاً .

هل الاخلاق علم مستقل ؟

بحث الاخلاق ذو صلة وارتباط بسواه لا سيما بعلم النفس ، اذ لا بد لنا - كي نحكم على خلق ما - من دراسة ما يعرفه علماء النفس باسم : الاحساس ، الرغبات ، الارادة ، الميول ، الشعور ، العواطف ، اللذة ، الألم ... هذا بالإضافة للفرائز المعلومة .

الاخلاق وسيلة لا غاية

دراسة الاخلاق والخروج بها من دائرة النظريات للعمليات وسيلة من وسائل التهذيب والنجاح - الفردي والاجتماعي - قد نتوصل له بطرق كثيرة كمعرفة تراجم الناجحين وقد نخفي بعض ما بنفوسنا خشية ألسنة المجتمع او طلباً للتصديق فيه .

علاقة الاخلاق بالعادات

مهمة عالم الاخلاق شاقة ، اذ لا بد له من دراسة العادات والطبوس والمقائد لدى مختلف الشعوب ، فقد ترى امة ما

خلقاً مستهجنًا ، وهو لدى سواه مألوف .

مثلاً ، زواج الشخص بأصوله وفروره : (امهاته وبناته) مستهجن لدى جل الشعوب وخلق سيء وعادة تقزقز النفس ، ولكنه لدى بقايا الجوس ليس مستهجنًا بل مبارك يشمر ذرية ذكية !

وهنا يقف عالم الاخلاق مشوشاً مكتئباً بالقول : هناك اخلاق راسخة بالضمير العام كاستهجان الكذب ... وهناك اخلاق يختلف استحسانها او استهجانها باختلاف الزمان والمكان .

الفرق بين الأخلاق والعادات

الاخلاق ناموس ثابت لا يتغير ولا يتبدل باختلاف الزمان والمكان ، أما العادات فنামوس طارئ قد يزور قوماً ثم لا يلبث ان يفارقهم .

فالصدق واحترام الآيين واحترام حقوق الناس : اموالهم وأعراضهم ودمائهم ... ناموس ثابت جاءت به جميع الأديان السماوية وأنست به الأقطار الوضعية واستقبله علماء الاخلاق بالترحيب .

أما العادات ، الناموس الطارئ ، فينبغي إحالتها الى محكمة

وإذا نالت منه تفاخرت بالأخلاق) .

والأخلاق رأس مال الفرد والجماعات إذ هي خاتمة مطاف
اليعظمين ولذا مدح الله خاتم الرسل بقوله (وإنك لمخلى خلق
عظيم) وصرح بأن المقصود البعيد من رسالته الخالدة تقويم
الأخلاق وتجديد ما طمس منها (إنما بشت لأنتم مكارم

الأخلاق) .

وقال أمير الشعراء :
وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فاقم عليهم مائماً وعويلاً

لا استدراك

ليس ثلثي حتى الاستدراك على أبي عثمان ولو بإيجاز مسبب أو
إسهاب موجز ولكنها أسطر لا تعدو التعليق على بعض الكلمات
القوية أو الاصطلاحات الفلسفية التي أرسلها أبو عثمان بعصر كان
يرى فيه جميع قرائه أو أكثرهم يدركون مقاصده .

ثم بعدت الشقة وتغايرت الاصطلاحات والمفاهيم فاستأذنت
روح أبي عثمان شهيدة البحث والتنقيب ولا أراها - وهي في
دار الخلود - إلا مستجيبة إذ هي أشد مني حرصاً على نشر
الفكر النطلق وتعميمه .

وما أنا ذا - حرصاً على وقت القارئ وعملاً بتوجيه بعض

النتائج ، فما أثر منها خيراً لمن زاو لها أو أسرته أو قومه
أو الأسرة الانسانية الكبرى ، ينبغي إلحاقه بالأخلاق التي
دعماها الجاحظ محمود ، وإلا فيجب تسجيلها في سجل
الدمومات .

الأخلاق ميزان الشعوب

الشعوب - ولو كانت منحرفة في عقائدها الروحية - إذا
استقامت أخلاقها - ولو الاجتماعية كالتضحية في سبيل المجموع
والإخلاص للوطن وخدمته على ضوء الثقافة والفهم السليم -
شعوب سجلت لنفسها السيادة - في بلادها على الأقل - !
أما الشعوب التي استقامت عقائدها الروحية وسلمت أخلاقها
الفردية ومرضت الاجتماعية فضحت المجموع في سبيل أنانيات
الأفراد وخدمت المصالح الخاصة مسترة بالعام ، أو خدمت
العامه غير مستنيرة بالثقافة والفهم السليم ، فشعوب حكمت على
نفسها بالبقاء في الرعيل الأخير من قافلة الانسانية ، ولن يتغير
واقعها إلا إذا استأنفت السير .

والأخلاق ، آخر حلقة من سلسلة الشوط الحضاري يقول
علماء الاجتماع : (إذا كانت الأمم في الحرف الأول من أجيادية
تكوينها تفاخرت بالقوة الجسدية فإذا تجاوزته تفاخرت بالعلم

فلسفة المعاد والمعاش

في الأدب وتدير الناس ومُعاملاتهم

كتب بها إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد

بسم الله الرحمن الرحيم

حفظك الله وأبقاك وأمتع بك : (*) إن جماعات أهل
الحكمة (١) قالوا : واجب على كل حكيم أن يحسن الارتداد
لموضع البغية * وأن يتبين أسباب الأمور ويهتد لعواقبها .
فإنما تحدث العلماء بحسن التثبت في أوائل الأمور * واستشفافهم
بمقوله ما تجيء به العواقب ، فيعلمون عند استقبالها ما
تؤول به الحالات في استدبارها ، ويقدر تفاوتهم في ذلك تستبين
فضائلهم . فلما معرفة الأمور عند تكشفها وما يظهر من
خفياتها ، * فذلك أمر يعتدل فيه الفاضل والفضول . وللمعلمون
والجاهلون :

* ابتداء رواية م (١) :-

أقطاب الأدب ونزولاً عند رغبة الناصر ، أعلق على الكلمات
التي أراها جديدة بالشرح والتعليق مكتفياً بوضع رقم إزاء
المواضع يأخذ بيد القارئ لشرحها الذي جعلناه مسك الحتام .
فكلمة الحكمة في الصفحة الأولى مثلاً أخذت رقم (١) في
الأصل والرقم نفسه في التعليق وهكذا دواليك .

(٢٠) وإني عرفتك - *أكرمك الله - في أيام الحداثة وحيث سلطان اللهو *المُخلَق (٢) للأعراض أغلب على نظر انك وسكر الشباب والجدّة المتحقّقين للدين والروءة *مستول على لائقك ، فاختبرت أنت وهم ببسطة القدرة وحنّنا الحداثة وطول الجدة ، مع ما تقدّمتهم فيه من الوسامة في الصورة والجمال في الهيئة . وهذه *كلها أسباب *تكاد توجب الانقياد للهوى *وليج من الممالك لا يسلم منها الا النقط القرين في صحة الفطرة وكال العقل . فاستميتهم الشهوات حتى أعطوها أزمة أديانهم وسلطوهم على مروءاتهم وأباحوها أعراضهم ، فألت باكثرهم *الحال الى ذلّ العدم وقفد عزّ الفنى في العاجل مع الندامة الطويلة *والحسرة في الآجل .

وخرجت نسج وحدك *أوخدياً في عصرك ، حكمت وكيل الله عندك (٣) - وهو عقلك - على هوائك وألقيت اليه أزمة أمرك ، فسلك بك طريق السلامة وأسلمك الى المأقبة المحموده ، وبلغ بك من نيل *الذّات أكثر * مما بلغوا *موال بك من الشهوات أكثر مما نالوا * وصرّفتك من *صدوف النعم في أكثر مما قصروا ، وربط عليك من نعم الله التي حوّل

* ابتدء وولاية بـ

ما أطلقه من أيديهم إشار اللهو وسليطهم الهوى على أنفسهم ، فخاص بك تلك اللعج واستنقذك من تلك المعاطب ، فأخرجك سليم الدين وافر المروءة نقي العرض * كثير البرآمن الجدة . وذلك سبيل من كان ميله الى الله أكثر من ميله الى هواه * ولم أزل في أحوالك تلك كلها بفضيلتك عارفاً ولك * بنعم الله عندك غايلاً (٤) ، أرى ظواهر أمورك *المحمودة * قدعوني الى الانقطاع اليك وأسأل عن بواطن أحوالك فتزيدني رغبة في الاتصال بك ، *ارقيسأداً (٥) متني لموضع الخيرة في الأخوة ، والنمسا لإصابة *الاصغفاء في المودة وتخير المستودع الرجاء في النافذة (٦) . فلما محضتك الخبرة * وكشفك الابتلاء عن المحمدة * وقضت لك التجارب بالتقدمة وشهدت لك قلوب العامة بالقبول والحبسة وقطع الله عذر * كل من كان يطلب الاتصال بك ، *طلبت الوسيلة اليك والاتصال بملك ، فمت بحرمة الأدب وذيام كرمك . وكان من نعمة الله عندي ان جعل *أبا عبد الله - حفظه الله - وسليتي اليك ، فوجدت المطلب سهلاً * والمراد محموداً ، وأفضيت الى ما يجوز الأمنية * وبنوت الأمل فوصلت *اخائي بمودتك وخلطتني بنفسك وأستمتني * في مراعي ذوي الخاصة بك ، تفضلاً لاجازاة وتطولاً لا مكافاة . فأمّنت الخطوب واعتليت على الزمان ،

واتخذتك للأحداث عدة ، ومن نوائب الدهر حصناً منيعاً .
 فلما حزت المؤانسة ، وتقلب من فضلك في صنوف النعمة ،
 وزاد بصري من مواهبك في السرور والخبرة ، أردت خبرة
 المشاهدة فيلوت *أخلاقك* ، وامتعت شيمك ، وعجبت (٧)
 مذهبك على حين غفلاتك وفي الاوقات التي يقل فيها تحفظك ،
 اراعي حركاتك وأراقب مخارج أمرك ونهيك ، فأرى* من
 استصفارك لعظيم النعمة التي تنعم بها واستكثارك لقليل
 الشكر من شاكريك ، *ما أعرف به - * بما قد بلوت من
 غيرك ما قد شهدت لي به التجارب - ان ذلك *منك* طبع
 غير تكلف . ميات ما يكاد ذو التكلف أن يخفى *على العباد*
 فكيف على مثلي من المتصفحين (*) . فزادني المؤانسة فيك
 رغبة وطول العشرة لك محبة ، وامتحاني أفاعيلك لك تفضيلاً
 وبطاعتك دينونة . *وكان تمام شكري لربي ولي كل نعمة
 والمبتدي بكل احسان ، الشكر لك* والقيام بمكافأتك بما
 أمكن من قول *وقول . لأن الله تبارك وتعالى نظم الشكر
 له بالشكر* . *لذي النعمة من خلقه ، وأبى أن يقبلها الا معاً ،
 لأن أحدهما دليل على الآخر* . وموصول به . فمن ضيع شكر
 ذي نعمة من الخلق فأمر الله ضيع* وبشهادته استحق . *ولقد

* ١٥ رواية م (١) .

جاء بذلك الخبر عن الطاهر الصادق صلى الله عليه وسلم
 *فقال : * من لم يشكر للناس لم يشكر لله . ولعمري إن
 ذلك لوجود في الفطرة قائم في النمل ، أن* من كفر نعم
 الخلق كان لنعم الله أكفر . لأن الخلق يعطي بعضهم
 بعضاً بالكلفة والمشقة وثقل العطية على القلوب ، والله يعطي
 *بلا كلفة . وهذه العلة جمع بين الشكر له والشكر لذوي النعم
 من خلقه .

فلما وجبت *علي* الحجة لشكرك *وقطع عذري في
 مكافأتك ، اعترفت بالتقصير عن تقضي ذلك . إلا* أني
 بسطت لساني بتقريظك ونشر عسانك ، موصول* ذلك
 عندي لأذان السامعين بالاعتراف بالمعجز عن إحصائها . وقد
 روي* عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : * من
 أودع عرفاً فليشكره ، فإن لم يكن فليشكره ، فإذا نشره فقد
 شكره وإذا كتبه فقد كفره . *

* ثم قد رأيت أن قد بقي عني أمر من الأمور يمكنني فيه
 برك* هو عندي عتيد وأنت عند غير مستغن والمنفعة لك
 فيه عظيمة عاجلة وآجلة ، *إن شاء الله .

* ١٦ رواية ب .

(*) ولم أزل - أبقاك الله - بالموضع الذي قد علمت من جمع الكتب ودراستها والنظر فيها ، ومعلوم أن طول دراستها إنما هو تصفح عقول العالمين والعلم بأخلاق النبيين وذوي الحكمة من الماضين والباقيين ، من جميع الأمم وكتب أهل الملل . فرأيت أن أجمع لك كتاباً من الأدب جامعاً لعلم كثير من المعاد والمعاش ، أصيغ لك فيه علل الأشياء وأخبرك بأسبابها وما اتفقت عليه محاسن الأمم . وعلمت أن ذلك من أعظم ما أبرك به وأرجح ما أتقرب به إليك . وكان الذي حداني على ذلك ما رأيت الله قسم لك من العقل والفهم وزكيت فيك من الطبع الكريم . وقد أجمعت الحكماء أن العقل المطبوع والكرم الغريزي لا يبلغان غاية الكمال إلا بمعاونة العقل المكتسب ، ومثلوا ذلك بالنار والخطيب والمصباح والدمن . وذلك أن العقل الغريزي آلة والمكتسب مادة ، وإنما الأدب عقل غيرك تزيد في عقلك . ورأيت كثيراً من واضعي الآداب قبلي قد عهدوا إلى الغابرين بعدم في الآداب عهداً ، قاربوا فيها الحق وأحسنوا فيها الدلالة . إلا أني رأيت أكثر ما رسموا من ذلك فروغاً

* ابتداء رواية م (٢) .

لم يبينوا عللها وصفات حسنة لم يكشفوا أسبابها وأموراً محمودة لم يدلّوا على أصولها . فإن كان ما فعلوا من ذلك * روايات روتها عن أسلافهم ووراثات ورثوها عن أكابرهم ، فقد قاموا بأداء الأمانة ، ولم يبلغوا فضيلة من يستنبط . وإن كانوا تركوا الدلالة * على أعيان الأمور * التي بمعرفة عللها يوصل إلى مباشرة اليقين فيها وينتهي إلى غاية الاستبصار منها ، فلم يعدوا في ذلك منزلة الضن بها . * ولن تجد وصايا أنبياء الله * أبداً إلا مبينة الأسباب مكشوفة العلل مضروبة معها الأمثال (*) .

فألفت لك كتابي هذا (٨) ، وأنا واصل لك فيه الطبائع التي ركب عليها الخلق وفطرت عليها البرايا كلهم ، فهم متساوون فيها وإلى وجودها في أنفسهم مضطرون وفي المعرفة بما يتولد عنها متفقون . ثم مبين لك كيف تفترق بهم الحالات وتفتاوت بهم المنازل ، وما العلل التي يوجب بعضها بعضاً وما الشيء الذي يكون سبباً لغيره متى كان الأول كان ما بعده ، وما السبب الذي لا يكون الثاني فيه إلا بالأول وربما كان الأول ولم يكن الثاني ، وفرق ما بين الطبع الأول وبين

* ١٠٨ رواية م (٢) .

الاكتساب والعادة* التي تصير طبعاً ثانياً ، ولم يختلف ذلك
وكيف دواعي قلوب الناس وما منها يتمتعون منه وما منها لا
يتمتعون منه وما أسباب توازع شهواتهم ، وما الشيء الذي
يحتال* لقلوبهم به حتى تستمال وحتى تؤنس بعد الوحشة وتسكن
بعد النفار ، وكيف يتأتى لينقض ما فيهم من الطبائع المذمومة
حتى تصرف الى الشيم الحمودة . ورأسم لك في ذاك أصولاً
ومبين لك مع كل أصل منها علته وسببه .

وقد علمت أن في كثير* من الحق مشتبهات لا تستبان إلا
بعد* النظر والتأمل . وهناك* يختل الشيطان أهل الغفلة ،
وذلك أنه لا يجد سبيلاً الى اختداعهم عن* الأمر الظاهر* .
فلم أدع من تلك المواضع الحقة موضعاً إلا أقمت* لك بإزاء
كل شبهة دليلاً ومع كل خفي من الحق حجة ظاهرة ،
تستنبط بها غوامض البرهان وتستبين بها دفائن الصواب
وتستشف بها سرائر القلوب ، فتأتي ما تأتي عن بينة وتدع ما
تدع عن خبرة ، ولا يكون بك وحشة الى معرفة كثير مما
يغيب عنك إذا عرفت العلل والأسباب ، حتى كأنك مشاهد
لضمير كل امرئ ، لمعرفتك بطبعه وما ركب عليه* (عوارض

*** (٦١-٦٠) رواية م (٣) .

الأمور* الداخلة عليه . ثم غير رأيك بالأصول حتى أتقصي
لك ما بلغه علمي من الفروع . لا أرسم لك من ذلك* إلا
الأمر* المعقول في كل طبيعة والوجود في فطرة البرايا كلها .
فإن أحسنت ذلك وأقمته على حروده* ونزلته منازلها ، كان
عمرك - وإن قصرت أيامه - طويلاً وفارقت ما لا بد لك
*من فراقه محموداً ، إن شاء الله .

واعلم أن الآداب إنما هي آلات تصلح ان تستعمل في الدين
وتستعمل في الدنيا ، وإنما وضعت الآداب على أصول الطبائع ،
وإنما أصول* أمور التدبير في الدين والدنيا واحدة . فما فسدت
فيه المعاملة في الدين فسدت* فيه المعاملة في الدنيا ، وكل أمر لم
يصح في معاملات الدنيا لم يصح في الدين .
وإنما الفرق بين الدين والدنيا اختلاف الدارين من الدنيا
والآخرة فقط ، والحكم ها هنا أحكم هناك . ولولا ذلك ما
قامت مملكة ولا ثبتت دولة ولا استقامت سياسة .
ولذلك* قال الله عز وجل ومن كان في هذه
أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً . قال ابن عباس في
تفسيرها : من كان ليس له من العقل ما يعرف به كيف دبرت
أمور الدنيا ، فكذلك هو إذا انتقل إلى الدين ، فإنما ينتقل
بذلك العقل ، فيقدر جهله في الدنيا يكون جهله بالآخرة أكثر ،

لأن هذه شاهدة وتلك غيب ، فإذا جهل ما شاهد فهو بما غاب عنه أجهل .

فأول ما أوصيك به ونفسي تقوى الله ، فإنه جماع كل خير وسبب كل نجاة ولقاح كل رشد ، هي أحرز حرز وأقوى معين وأمنع جنة (٩) ، هي الجامعة بحبة قلوب العباد * والمستقبلة بك حبة من لا تجري عليهم نعمك . فأجعلها عدتك وسلاحك وأجعل أمر الله ونهيه نصب عينيك .

وأحذرك ونفسي الله والاعتدال به والإدمان في أمره والاستهانة * بعزائمه والأمن لمكره . فقد رأيت آثاره في أهل ولايته وعداوته ، كيف جعلهم للماضي عبرة وللغايين مثلاً . وأعلم أن خلقه كلهم بريئة ، لا * وصلة بينه وبين أحد منهم إلا بالطاعة . فأولاهم به أكثرهم تزيئاً في طاعته ، وما خالف هذا فإنه أمان (١٠) وغرور . * وقد مكن الله لك من أسباب المقدرة ومهد لك * في تمكين الغنى والبسطة ما لم تتحله بحيلة * ولم تلقه بقوة ، لولا فضله وطوله . ولكنه مكنك ليلو خبرك ويختبر شكرك ويحصي سعيك ويكتب أثرك ، ثم يوفيك أجره ويأخذك بما اجتاحت * يدك ، أو يعفو فأهل العفو هو . والله ابتلاء أن في خلقه - والابتلاء هو الاختبار - ابتلاء بنعمة وابتلاء بمصيبة . ويقدر عظمها بحسب التكليف * من الله عليها .

فبقدر ما خولك من النعمة يسرّ عليك الشكر . ولو تقصّى الله على خلقه لمذنبهم . ولذلك * قال : « يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة . ولكنه قبل التوبة وأقال العثرة وجعل بالحسنة أضعافاً .

واعلم أن الحكم في الآخرة هو الحكم في الدنيا ، ميزان قسط وحكم عدل . وقد قال الله تعالى فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون . وهذا مثل ضرب به الله لأن الناس يعلمون أن لو وضع في إحدى كفتي الميزان شيء ولم يك في الأخرى قليل ولا كثير ، لم يكن للوزن معنى . يعقل بذلك أن أحداً من الخلق لا يخلو من حقوة أو زنة أو غفلة ، فأخبر أن من كانت حسناته الراجحة على سيئاته ، مع الندم على السيئات ، كان على سبيل النجاة وطريق الفوز بالإفلاح ، ومن مالت سيئاته بحسناته كان العطش والعذاب أولى به . وكذلك حكمة في الدنيا ، لأنه * قد تولى أولياء من خلقه وشهد لهم بالعدالة . وقد عاتبهم في بعض الأمور لغلبة الصلاح * في أفعالهم وإن حقوا وتبرأ من آخرين وعاداهم لغلبة الجور * على * أفاعيلهم وإن أحسنوا في بعض الأمور . وكذلك جرت معاملات * الخلق بينهم ، يعدلون العادل * بالغالب من فعله وربما أساء ويفسقون

الفاقد وربما أحسن . وإنما الأمور بعواقبها وإنما يقضى على كل امرئ بما شاكل أحواله .

فهذه الأمور قائمة في العقول جرت عليها المعاملة واستقامت بها السياسة لا اختلاف بين الأمة فيها . فلا تغبن حظك من دينك . * وإن استطعت أن تبلغ من الطعة غايتها فلنفسك عهد ، وإلا فاجهد أن يكون أغلب * أفعالك عليك الطاعة مع الندامة عند الإساءة ويكون ميلك * عند لإساءة إلى الله أكثر ، والله يوفقك .

اعلم أن الله جل ثناؤه خلق خلقه ثم طبعهم على حب اجترار المنافع ودفع المضار * وبغض ما كان بخلاف ذلك . هذا فيهم طبع مركب وجبلة مفطورة ، لا خلاف بين الخلق فيه موجود في الانس والحيوان ، لم يدع غيره مدع من الأولين والآخرين . وبقدر زيادة ذلك ونقصانه تزيد المحبة والبغضاء * كزيادته تميل الطبيعة * معها كميل كفتي الميزان * قل ذلك أو أكثر .

* وهاتان خلقتان داخل فيهما جميع محاب العباد ومكارهمهم . والنفس في طبعها حب الراحة والدعة والازدياد والعلو والعز والغلبة والاستطراف (١١) * والتنوُّق (١٢) وجميع ما تستلذ الحواس من المناظر الحسنة والروائح العبقة * والطعموم الطيبة

والأصوات المونقة والملامس اللذيذة وما * كراهته في طباعهم أضداد ما وصفت لك وخلافه .

فهذه الخلال التي يجمعها * خلقت غرائز في الفطر وكوامن في الطبع ، جبلة ثابتة وشيعة مخلوقة . * على أنها في بعض أكثر منها في بعض ، ولا يعلم * قدر الغلبة فيه والكثرة إلا النبي دبرهم . فلما كانت هذه طبائعهم أنشأ لهم من الأرض أرزاقهم وجعل في ذلك ملأً لجميع حواسهم ، فتعلقت * به قلوبهم وتطلعت إليه أنفسهم . فتو تركهم وأصل الطبيعة - مع ما مكن لهم من الأرزاق المشتهة في طبائعهم - صاروا إلى طاعة الهوى وذهب التعاطف والتبارك (١٣) وإذا ذهب كان ذلك سبباً للفساد وانقطاع التناسل وفناء الدنيا وأهلها . لأن طبع النفس لا يسلس بعطية قليل ولا كثير مما حوته ، حتى تعوض أكثر مما تعطي إما عاجلاً وإما آجلاً مما تستلذه حواسها .

فعلم الله أنهم لا يتعاطفون ولا يتواصلون * ولا ينقادون إلا بالتأديب ، وأن التأديب ليس إلا بالأمر والنهي غير ناجعين فيهم إلا بالترغيب والترهيب اللذين في * طباعهم . فدعاهم بالترغيب إلى جنته وجعلها عوضاً مما تركوا في جنب * طاعته ، وزجرهم بالترهيب بالنار على معصيته وخوفهم بعقابها على ترك أمره . ولو تركهم جل ثناؤه * والطبع الأول جرّوا على

بين الفطرة * وعادة الشبهة ، ثم أقام الرغبة والرغبة على حدود العدل وموازين النصفة ، وعدلهم تعديلاً متفقاً فقال فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

ثم أخبر * الله تبارك وتعالى أنه غير داخل في تدبيره الخلل ولا * جائز عنده المحاباة ، ليعمل كل عامل على ثقة مما وعده وأوعده . فتعلقت قلوب العباد بالرغبة والرغبة ، فاطرد التدبير واستقامت السياسة ، لموافقتها ما في الفطرة وأخذها بمجامع المصلحة .

ثم جعل أكثر طاعته فيما تستثقل النفوس وأكثر معصيته فيما تلذذ . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « حُفَّت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات » ، * يخبر أن الطريق إلى الجنة احتمال المكاره والطريق إلى النار اتباع الشهوات * . * فإذا كانوا لم يصلحوا خالقهم ولم ينقادوا لأمره إلا بما وصفت * لك من الرغبة والرغبة ، فأعجز الناس رأياً وأخطأهم تدبيراً وأجهلهم بموارد الأمور ومصادرها من أمل أو ظن أو رجا أن أحداً من الخلق - فوقه * أو دونه - يصلح له ضميره أو يصح له بخلاف ما دبرهم الله عليه فيما بينه وبينهم . فالرغبة والرغبة * أصلاً كل تدبير وعليها مدار كل سياسة عظمت أو صغرت ، فاجعلها مثالك الذي يحتذى عليه وركنك الذي يستند إليه .

(*) * واعلم أنك * إن أملت ما وصفت لك ، عرضت تدبيرك للاختلاط . وإن آثرت الهوينا واتكلت على الكفاية في الأمر الذي لا يجوز فيه إلا تفكير ، * وزجيت أمورك على على رأي مدخول وأصل غير محكم ، ورجع ذلك عليك بما لو * حكم فيك عدوك كان ذلك غاية أمنيته وشفاء غيظه . واعلم أن إجرائك الأمور بخاريها واستعمالك الأشياء على وجوهها ، يجمع لك ألفة القلوب ويغاملك كل من غاملك بمودة * أخذاً وإعطاء ، وهو على ثقة من * بصرك بمواضع الإنصاف وعلمك بموارد الأمور (*) .

واعلم أن أثرتك على غير النصيحة والشفقة والحرمة والكفاية * توجب المباعدة وقلة الثقة بمن آثرت أو آثرت عليه . فاعرف لأهل البلاء من جرت بينك وبينه مودة أو حرمة - من فوقك أو دونك أو نظراءك - أقدارهم ومنازلهم * ثم لتكن أمورك معهم على قدر البلاء والاستحقاق . * ولا تؤثر في ذلك أخداً يهوى ، فإن الأثرة على المستوى توجب السخطة وتوجب استصغار عظيم النعمة * ويحق بها الإفضال * وتفسد بها الطائفتان من * آثرت ومن آثرت عليه .

(**) (١٠ - ٧) واعلم : الأمور : رواية م (٤)

في المثل :

مَنْ لَا يُؤَدِّبُهُ الْجَمِيلُ فِي عَقُوبَتِهِ صَلَاحُهُ (*) .

* وقال بعض الحكماء : ليس بحكيم مَنْ لَمْ يُعَاشِرْ مَنْ لَا يَحْدُّ مِنْ مُعَاشِرَتِهِ بَدَأٌ بِالْعَدْلِ وَالنَّصِيقَةِ ، حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ فَرْجًا وَمَخْرَجًا .

* فاحفظ هذه الأبواب التي يوجب بعضها بعضاً . وقد ضمنت * لك أوائلها كونَ أو آخرها ، فاعرفها واقببها ، واعلم أنه متى كان الأول منها واجب ما بعده لا بُدَّ منه . فاحذر المقدمات التي يعقبها المكروه ، واحرص على توطيد الأمور التي على أثرها السلامة ، والقح في السدي أموراً * نتاجها العافية . فمن الأمور التي يوجب بعضها بعضاً : المنفعة ، توجب المحبة والمضرة توجب البغضاء والمضادة توجب العداوة ، وخلاف الهوى يوجب الاستئصال ومتابعته توجب الألفة ، والصدق يوجب الثقة والكذب يورث التهمة والأمانة توجب الطمأنينة ، والعدل يوجب اجتماع القلوب والجور يوجب الفرقة ، وحسن الخلق يوجب المودة وسوء الخلق يوجب المباعضة ، والانسياط يوجب المؤانسة والانقباض يوجب

(١-٦) فإني ابتليت ... صلاحه : رواية م (٥) .

الوحشة ، والكبر يورث المقت والتواضع يوجب الحقبة ، والجود بالقصد يوجب الحمد والبخل يوجب المذمة ، والتواني يوجب التضييع والجِدُّ يوجب رخاء الأعمال ، والهويناء تورث الحسرة والحزم يورث السرور ، والتغريب يوجب الندامة والحذر يوجب العذر ، وإصابة التدبير توجب بقاء النعمة ، والاستهانة توجب التباغي ، والتباغي مقدمة الشر وسبب البوار . ولكل شيء * من هذه الإفراط وتقصير . وإنما تصح نتائجها إذا أقيمت على حدودها . ويقدَّر ما يدخل من الخلل فيها يدخل فيما يتولد منها ، لا بد منه ولا مزحل عنه ، عليه عادة الخلق وبه جرت طبائعهم ، وتتمام المنفعة بها إصابة مواضعها . فالإفراط في الجود يوجب التبذير ، والإفراط في التواضع يورث المذلة ، والإفراط في الكبر يدعو إلى مقت الخاصة ، والإفراط في المؤانسة يدعو لخلطاء السوء ، والإفراط في الانقباض يورث إذا النصيحة ، وآفة الأمانة اثتان الخيانة (١٤) وآفة الصدق تصديق الكذبة ، والإفراط في الحذر يدعو إلى أن لا يؤثق بأحد وذلك ما لا سبيل إليه ، والإفراط في المضرة مبعثة على حربك ، والإفراط في جر المنفعة غناً لمن أفرطت في نفعه عنك . واحذر كل الحذر أن يختدعك الشيطان عن الحزم ،

فيمثل لك التواني في صورة التوكل ويسلبك الحذر ويورثك
الهوينا بإحالتك على الأقدار . * فإن الله إنما أمر بالتوكل عند
انقطاع الحيل والتسليم للقضاء بعد الأعذار . بذلك أنزل كتابه
وأمرى سنته ، فقال خذوا حذركم * ولا تلقوا بأيديكم إلى
التهلكة . وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : اعقلها
وتوكل . * وسئل ما الحزم ؟ قال الحذر . فتحفظ من هذا
الباب وأحكم معرفته إن شاء الله تعالى .

واعلم أن أكثر الأمور إنما * هو على العادة وما تضرى عليه
النفوس ، ولذلك قالت الحكماء : العادة أمك بالأدب . ففرض
نفسك على كل أمر محمود العاقبة * وضرها بكل ما لا يؤذي من
* الأخلاق ، يصير ذلك * طباعاً وينسب إليك منه أكثر مما
أنت عليه .

واعلم أنت الذين يوجب لك اسم الجود القيام بواجب
الحقوق عند النوائب مع بعض التفضل على الراغبين ، وإذا
وجب لك اسم الجود زال عنك اسم البخل .

واعلم أنت تشمير المال آلة للمكارم وعون على الدين
ومتألف للاخوان ، * وأن من قد فقد المال قلت الرغبة إليه
والرغبة منه ، ومن لم يكن بموضع رغبة ولا رهبة استهان
الناس به . فاجهد الجهد كله إلا تزال القلوب معلقة منك برغبة
أو رهبة في دين أو دنيا .

واعلم أن السرف لا يقاء منه لكثير ولا تشمير معه لقليل
ولا تصلح عليه دنيا ولا دين . * وتأدب بما أدب الله نبيه *
فقال ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل
البسط فتقعد ملوماً محسوراً . وقالت الحكماء : القصد أبقى
للجهام . فداوim حالك وبقاء تنعمة عليك بتقدير * أمورك
على قدر الزمان بقدر الإمكان . فقد قال الشاعر :

من سبق الدهر كتباً كبوة . يستقيها من خطى الدهر
فاخط مع الدهر * إذا ما خفت . واجر مع الدهر كما يجري
واعلم أن الصمت في موضعه . ربما كان أنفع من الإبلاغ
بالمنطق في * موضعه وعند إصابته فرصته ، وذلك صمتك عند
من يعلم أنك لم تصمت عنه عذراً ولا رهبة . فليزدك في الصمت
رغبة ما ترى من * كثرة فضائح المتكلمين في غير الفرض
وهذر من أطلق لسانه بغير حاجة .

واعلم أن الجبن حنين والشجاعة شجاعتان ، * وليس
تكون الشجاعة والجبن إلا في كل أمر لا يدرى ما عاقبته
يخطر فيه بالأنفس والأموال . فإذا أردت الحزم في ذلك فلا
تشجع نفسك على أمر أبداً إلا والذي ترجو من نفعه في العاقبة
أعظم مما تبذل فيه * في المستقبل ، ثم يكون * الرجاء في ذلك
أغلب عليك من الخوف . وهنا هنالك موضع يحتاج فيه إلى

النظر : فإن كان ذلك أمراً واجباً في الدين أو خوفاً لمعار
 'تسب' به الأعقاب' فانت معذور' بالمخاطرة فيه بنفسك
 ومالك . وإن كان أمراً تعظم منفعته للدنيا إلا أنك
 لا تناله إلا بالخطر بمهجة نفسك أو بتعريض كل مالك للتلف ،
 فالإقدام على مثل هذا ليس بشجاعة ولكن حماقة بينة عند
 جميع الحكماء . وقد قالت علماء أوائل الناس : لا ترسل
 الساق إلا ممسكاً ساقاً . وقالوا : لا تخرج الأمر كله من يدك
 وخذ بأحد جانبيه . ثم الشجاعة والجبن في ذلك بقدر
 الحالات والأوقات .

واعلم أنت أصل ما أنت مستظهر به على عدوك ثلاث
 خلال : أشرُفها أن تأخذ عليه بالفضل وتبتدئه بالحسن ،
 فتكون عليه رحمةً ولنفسك نظراً ، فإن كثرة الأعداء تنفص
 للسرور . وقد قال الله تبارك وتعالى ادفع بالتي هي أحسن
 فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . فإن كان
 عدوك ممن لا يصلح على ذلك ، فحصن عنه أسرارك وعم عليه
 آثار تدبيرك ولا يطلعن على شيء من مكائيدك له بقول ولا
 فعل ، فيأخذ حذرَه ويعرف مواضع عوارك فإن تحصين
 الأسرار أخذٌ بأزمة التدبير وإكثار الوعيد للأعداء فشل
 ولنكن داج عدوك ما داجاك وأحص معايبه ما

لا خالك (١٥) وقال الشاعر :

كل يداجي على البغضاء صاحبه

زكيت (١٦) منهم على مثل الذي زكوا

واعلم أن أعظم أعيانك عليه الحجج ثم الفرصة . ثم
 لا تظهرن عليه حجة ولا تهتبل منه غرة ولا تطلبن له عثرة
 ولا تهتكن له سترأ ، إلا عند الفرصة في ذلك كله وفي المواضع
 التي يجب لك فيها العذر ويعظم فيها ضرره . هذا إن كان
 العفو عنه شراً له . وإن كان من يظهر لك العداوة ويكشف
 لك قناع المحاربة وكان ممن أعيانك استصلاحه بالحلم والآناة ،
 فلتكن في أمره بين حالين : استبطان الحذر منه والاستعداد
 له ، وإظهار الاستهانة به . ولست مستظهراً عليه بمثل
 طهارتك من الأدناس وبرائك من المعاييب . فلتكن هذه
 سيرتك في أعدائك .

واعلم أن إشاعة الأسرار فساد في كل وجه من الوجوه
 من العذر والصدق . وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه
 وسلم أنه قال : استعينوا على الحوائج بسترها ، فإن كل ذي
 نعمة محسود .

وإذا فشيت شرك فجامت الأمور على غير ما تقدر كأن
 ذلك منك فضلاً من قولك على فعلك . وقد قيل في الأمثال :

من أفشى سره كثر المتآمرون عليه . * فلا تضع شرك إلا عند من يضره نشره كما يضرك وينفعه * ستره بحسب ما ينفعك .
واعلم أنك تستصحب من الناس * أجناساً متفرقة بحالاتهم متفاوتة منازلهم ، * وكلهم بك إليه حاجة وكل طائفة تسد عنك كثيراً من المنافع لا تقوم به من فوقها ، ولعلمهم مجتمعون على نصيحتك والشفقة عليك . فمنهم من تريد منه الرأي والمشورة * ومنهم من تريده للحفظ والأمانة * ومنهم من تريده للشدّة والغلظة ومنهم من تريده للمهنة ، وكل يسدّ مسدّة على حياله . وقد قيل في الحكمة : إن الحلال تنفع حيث لا ينفع السيف . ولا تخلين أحداً * منهم - عظم قسبده أو صغرت منزلته - من عنايتك وتعهدك ، بالجزاء * على الحسنة والمعاتبة عند العثرة ، ليعلموا أنهم منك بمرأى ومسمع . ثم لا تجوزن بأحد منهم حدّة ولا تدخله فيما لا يصلح له ، يستقم لك حاله * ويتسقى لك أمره .

واعلم * أن سيمر بك * في معاملات الناس حالات تحتاج فيها إلى مداراة * أصناف الناس وطبقاتهم ، يبلغ بك غاية الفضيلة فيها وكال العقل والأدب منها ، أن تسالم أهلها وتملك نفسك عن هواها * وتكف عن جماحها ، * بأمر لا يخرجك في دينك ولا عرضك ولا بدنك ، بل يفيدك * عز الحلم وهيبة

الوقار * وهي أمور مختلفة تجمعها حال واحدة : منها أن تأتي بحفلا فيه * جمع من الناس ، فاجلس منه دون الموضع الذي تستحقه ، حتى يكون أهله * الذين يرفعونك فتظهر جلالتك وعظم قدرك . ومنها أن يفيض اقوم في حديث عندك منه مثل ما عندهم أو أفضل ، فيتنامون في إظهار ما عندهم . فإن نافستهم كنت واحداً منهم ، وإن أمسكت اقتضوك ذلك ، فصرت كأنك بمن عليهم بجديتك ، وأنصتوا لك ما لم ينصتوا لغيرك . ومنها أن يتأري جلساؤك ، والمرء نتاج اللجاجة وثمره أصلها الحمية ، فإن ضبطت نفسك كان تحاكمهم إليك ومعولهم عليك .

واعلم أن طبع النفوس - إذ كان على حب العلو والغلبة - أن في تركيبها بغض من استطال عليها . فاستدع محبة العامة بالتواضع ومودة الإخلاء بالمؤانسة والاستشارة والثقة والطمأنينة . واعلم أن الذي تعامل به صديقك هو ضد ما تعامل به عدوك ، فالصديق وجه معاملته المسالمة والعدو وجه معاملته المداراة * والمواربة ، * والمسالمة والمداراة هما ضدان يتنافيان . * يفسد هذا ما أصلح هذا * ، * وكلما نقصت من أحد البابين * زاد في صاحبه ، إن قليل قليل وإن كثير كثير . فلا تسلم * بالمواربة صداقة * ولا تظفر بالعدو مع الاستسلام إليه .

فضع الثقة موضعها وأقم الحذر * مقامه وأسرع إلى التفهم بالثقة
* ولا تبادر إلى التصديق ولا سيما بالحال من الأمور .

واعلم أن كل علم * بغائب - كائن ما كان - إنما يصاب
من وجوه ثلاثة لا رابع لها ، ولا سبيل لك ، ولا لفيرك إلى
* غاية الإحاطات لاستئثار الله بها . ولن تهنا بعيش مع شدة
التحرز ولن يتسوق لك أمر مع التضييع . فاعرف أقدار
ذلك .

فما غاب عنك مما قد رآه غيرك * مما يدرك بالعيان ، فسبيل
العلم به الأخبار المتواترة التي يحملها الولي والعدو والصالح
والطالح المستفيضة في الناس ، فتلك لا كلفة على سامعها من
العلم بتصديقها . فهذا الوجه يستوي فيه العالم والجاهل .

وقد يحىء خبر * أخص من هذا ، إلا أنه لا يعرف إلا
بالسؤال عنه والمفاجأة لأمله . كقوم * نقلوا خبراً ، * ومثلك
يحيط علمه أن مثلهم في تفاوت أحوالهم وتباعدهم من التعارف
* لا يمكن في مثل التواطؤ ، وإن جهل ذلك أكثر الناس . وفي
مثل هذا الخبر * يمتنع الكذب ولا يتهاى الاتفاق فيه على الباطل .

وقد يحىء خبر * أخص من هذا بحمله الرجل والرجلان من
* يجوز أن يصدق ويجوز أن يكذب . فصدق هذا الخبر في
قلبك إنما هو بحسن الظن بالخبر والثقة بمذاته . ولن يقوم هذا

الخبر من قلبك ولا قلب غيرك مقام الخبرين * الأولين . ولو
كان ذلك كذلك بطل التصنيع * والدين واستوى الظاهر والباطن
من العالمين .

ولما أن كان موجوداً في العقول أنه قد يفتش بعض الأمناء
عن خيانة وبعض الصادقين عن كذب ، وأن مثل الخبرين
الأولين لم يتعقب الناس في مثلها كذباً قط ، * علم أن الخبر
إذا جاء * من مثلها جاء * بحجي اليقين ، وأن ما علم من خبر
الواحد فإنما هو بحسن الظن والاثمان . * هذه الأخبار عن
الأمور التي تدركها الأبصار .

فأما العلم بما غاب مما لا يدركه أحد * بعيان ، مثل مرائر
القلوب وما أشبهها ، فإنما يدرك علمها بآثار أفاعيلها
* وبالغالب من أمورها على غير إحاطة كإحاطة الله بها .

* وأول العلم بكل غائب الظنون . والظنون انما تقع في
القلوب بالدلائل ، فكما زاد الدليل قوى الظن حتى ينتهي إلى
غاية تزول معها الشكوك عن القلوب ، وذلك لكثرة الدلائل
* ولترادفها .

فهذا غاية علم العباد بالأمور الغائبة * . (* فمن عرف ما

ص ٢٦ ، ١ - ٢٧ ، ١١ (فمن عرف ... والله يوفقك)

طبع عليه الخلق وجرت به عاداتهم وعرف أسباب اتصالهم واتصاله بهم وتقضى ^٢علل ذلك ، كان خليقاً - إن لم يحيط بعلم ما في قلوبهم - أن يقع من الاحاطة ^٣قريباً .

(*) واعلم أن المقادير ربما جرت بخلاف ما يقدر الحكماء ، فقال ^٤بها الجاهل في نفسه المختلط في تدبيره ، ما لا ينال الحازم الأريب الحذر . فلا يدعونك ما ترى من ذلك إلى التضييع والاتكال على مثل تلك الحال ، فإن الحكماء قد أجمعت أن من أخذ بالحزم وقدم الحذر ، فجاءت المقادير بخلاف ما قدر ، كان عندهم أحمد رأياً وأوجب عذراً ممن عمل بالتفريط ، وإن اتفقت له الأمور على ما أراد . ^٥ولعمري ما يكاد ^٦ذلك يحى ، إلا في أقل الأمور . ^٧وما كثر محيي السلامة إلا لمن أتى الأمور ^٨من وجوها . وإنما الأشياء ^٩بغيرها .

فلا تكونن بشيء مما في ^{١٠}يدك أشد ضناً ولا عليه أشد حذراً منك بالأخ الذي قد بلوته ^{١١}في السراء والضراء ، فعرفت مذاقه . وخبرت شيمه وصح لك غيبه وسلمت لك ناحيته . فإنما هو ^{١٢}شقيق روحك وباب الروح إلى حياتك ومستمد

* راعلم ... المذهب (ص ٢٧ من ٧) رواية م ٦

رأيتك ^{١٣}وتوأم عقلك . ولست منتفعاً بعيش مع الوحدة ولا بد من ^{١٤}موانسة . ونثرة الاستبدال تهجم بصاحبه على المكروه . ^{١٥}فإذا صفا لك أخ فكن به أشد ضناً منك بنفائس أموالك ، ثم لا يزهدين فيه أن ترى منه خلقاً أو خلفين تكرههما ، فإن نفسك التي هي أخص النفوس بك لا تعطيك المقادة في كل ما تريد ، فكيف بنفس غيرك . وبحسبك أن يكون لك من أخيك أكثره ، وقد قالت الحكماء : من لك بأخيك كله ، وأي الرجال المهذب . ثم ^{١٦}لا يمنعك ذلك من الاستكثار من ^{١٧}الأصدقاء ، فإنهم جند معدون لك ينشرون محاسنك ويحاجون عنك . ولا يحملنك استطراف ^{١٨}صديق ثان على ^{١٩}ملالة الصديق الأول ، فإن ذلك سبيل أهل الجهالة ، مع ما فيها من الدناءة وسوء التدبير وزهد الأصدقاء جميعاً في إخوانك ، والله ^{٢٠}يوفقك .

وستجد في الناس من قد جربته الرجال قبلك ومحضه اختبارهم لك . فمن كان معروفًا بالوفاء في أوقات الشدة وحالات الضرورة فنافس فيه واسبق إليه ، فإن اعتقاده أنفاس العقدة . ومن بلاه غيرك فكشف عن كفر النعمة والفدر عند الشدة ، فقد جذرك نفسه وإن أنشك ، وكأ غدر بغيرك يفدر بك . فإن من شيمته الوفاء يفي للصديق والعدو ، ومن طبيعته

القدر * لا يدوم وإنما يميل مع الرجحان ، * يذل عند الحاجة
 ويشمخ مع الاستغناء . فاحذر ذلك أشد الحذر .
 واعلم أن الحكماء لم تدم شيئاً ذمها أربع خلال : الكذب ،
 فإنه جماع كل شر . وقد قالوا : لم يكذب أحد قط إلا لصغر
 قدر نفسه عنده . والغضب ، فإنه لؤم وسوء مقدرة . وذلك
 أن الغضب ثمرة لخلاف ما تهوى النفس ، فإن جاء الإنسان
 خلاف ما يهوى من فوقه أغضى وسمى ذلك حزناً ، وإن
 جاءه ذلك من دونه حمله لؤم النفس وسوء الطباع على الاستطالة
 بالغضب والمقدرة بالبسطة . والجزع عند المصيبة التي لا ارتجاع
 لها ، فإنهم لم يعملوا لصاحب الجزع في * مثل هذا عذراً ،
 لما يتعجل من غم الجزع ، مع علمه بقوت المجزوع عليه .
 وزعموا أن ذلك من إفراط الشره ، وأن أصل * الشره والحسد
 واحد وإن اختلف فرعاهما . وذهموا الحسد كذمهم الجزع ،
 لما يتعجل صاحبه من ثقل الاغتمام وكلفة مقاساة الاهتمام ، من
 غير أن يكون عليه في ذاك شيء . فالحسد اغتمام والقدر لؤم .
 وقال بعض الحكماء : الحسد خلق دنيء ، ومن دنائه أنه يبدأ
 بالأقرب فالأقرب . وزعموا أنه لم بقدر غادر قط إلا لصغر
 همته عن الوفاء وخمول قدره عن احتمال المكارة في جنب نيل
 المكارم .

وبقدر ما ذمت الحكماء * هذه الأخلاق الأربعة . فكذلك
 حذرت أصدادها من الأخلاق ، فأكثرت في تفضيلها * الأقاويل
 وضربت فيها الأمثال ، وزعمت أنها أصل لكل كرم وجماع
 لكل خير ، وأن بها تنال جسم الأمور * في الدنيا والدين * .
 فاجعل هذه الأخلاق اماماً لك ومثلاً بين عينيك ورض عليها
 نفسك وحكمها في أمرك ، تفز براحة في * العاجل والكرامة في
 الآجل .
 والصبر صبران ، فأعلاما أن تصبر * على ما ترجو فيه
 الغنى في العاقبة . والحلم حلمان ، فأشرفها حلمك عن هو
 دونك . والصدق صدقان ، أعظمها صدقك فيما يضرك .
 والوفاء وفاءان ، * أستاذهما وفاؤك لمن لا ترجوه ولا تخافه .
 فلن من عرف بالصدق صار الناس له أتباعاً ، ومن نسب إلى
 الحلم ألبس ثوب الوقار والهيبة وأبهة الجلالة ، ومن عرف بالوفاء
 استنامت إلى الثقة به الجماعات * ، ومن * استعز بالصبر نال
 جسيمات الأمور . ولعمري ما * غلظت الحكماء حين ستمها
 أركان الدين والدنيا . فالصدق والوفاء * توأمان والصبر والحلم
 * توأمان ، * فبين تمام كل دين وصلاح كل دنيا ، وأصدادهم
 سبب كل فرقة وأصل كل فساد .
 وأحذر خصلة رأيت الناس قد استهانوا بها وضيعوا النظر

فيها ، مع اشتغالها على الفساد وقدحها البغضاء في القلوب والعداوة بين الأوداء : المفارقة بالأنساب . فإنه لم يغلط فيها عاقل قط ، مع اجتماع *الإنس جميعاً على الصورة وإقرارهم جميعاً بتفرق الأمور الحمودة *والمذمومة ، من الجمال والدمامة والثوم والكرم والجبن والشجاعة في كل حين ، وانتقالها من أمة إلى أمة ، ووجود كل محمود ومذموم في أهل كل جنس من الآدميين . وهذا غير مدفوع عند الجميع . فلا تجعلن له من عقلك نصيباً ولا من لسانك حظاً ، تسلم بذلك على الناس أجمعين مع السلامة في الدين .

(*) واعلم أنك موسومٌ بسياً من قارنت ومنسوبٌ إليك أفاعيلٌ من صاحب ، فتحرّز من دخلاء *السوء ومجالسة *أهل الرّيب . وقد جرت لك في ذلك الأمثال وسطّرت لك فيه الأقاويل ، فقيلوا : المرء حيث يجعل نفسه وقالوا : يُظنُّ بالمرء * ما يُظنُّ بقرينه . وقالوا : المرء * يشكله والمرء بأليفه . ولن تقدر على التحرّز من *جماعة الناس ، ولكن أقلّ المؤانسة إلا بأهل البراءة من كل دنس . واعلم أن المرء بقدر ما يسبق إليه يُعرف وبالمستفيض

* (٣٠٤) (١٠٤) واعلم ... التدمير : رواية م (٧) :

من أفعاله بوصف ، وإن كان بين ذلك كثيرٌ من *خلافه ألغاه الناس وحكموا عليه بالفالب من أمره . فاجهد أن يكون أغلب الأشياء *على أفاعيلك ما تحمده العوام ولا تدمه الجماعات ، فإن ذلك يُعفى على كل سخل إن كان . فبادر السنة الناس فاشغلها بحاسنك فإنهم إلى كل شيء مراع . واستظهر على من دونك بالتفضل *وعلى نظرائك بالإنصاف وعلى *من فوقك بالإجلال ، تأخذ بوثائق الأمور وأزمة التدبير .

وأعلم أن كثرة العتاب سبب للقطيعة واطراحه كله دليل على قلة الاكتراث *بأمر الصديق ، فكن فيه بين أمرين : عاتبه فيما تشتركان في تقعه وضره وذلك في الهنات ، وتجاو له عن بعض غفلاته تسلم لك ناحيته . وبحسب ذلك فكن في زيارته ، فإن الإلحاح في الزيارة يذهب بالبهاء وربما أورت اللالة ، وطول الهجران يعقب الجفوة ويحل عقدة الإخاء ويجعله صاحبه مدرجة للقطيعة . وقد قال الشاعر :

إذا ما شئت أن تسلي حبيباً فأكثر دونه عند الليالي
فأيسلي حبيبك مثل نأى ولا يبلى جديديك كابتدال *
واقصد في مزاحك ، فسلان الإفراط فيه يذهب بالبهاء ويجري عليك أهل الدناءة ، وإن التقصير فيه يقبض عنك

التكذيب ويدل على طلب التزويد . فاما ثناء المادحين لك في وجهك ، فاثبتنا تلك أسواق أقاموها للأرباح وساهلوك في المباينة ، ولم يكن في الثناء عليهم كلمة ، لكساد أقاديلهم عند الناس أولئك الصادقون عن طعن اسكارم والمتبطون عن ابتناء المال . فارتد لسمعك بغير ما نسو فيه فروعا وتركوا ثمرها ، لا تذهب بفتك ضياعا ، إنا لما جل تعدمه أو لاجل ثناء تنفع به .

ولن تعدم أن ينجاك في بعض أحوالك حقوق تبسطك وأحوال تعدحك وأمور كلها تنقسم عنايتك وفي التثبت في مثلها تعرف فضيلتك . فلا تستقبل بالتضييع وتبين الرأي ، وأبدأ منها بأعظمها منفعة وأشد ما خوف ضرره ، وكل ما أعجزك الى الكفاة واعتذر من تقصير ان كان ، فإن الاعتذار يكسر نخس ، ثلاثة ويردع شدة الشيرة . ثم تلاف بعد انكسار ذلك لك ما قاله .

واجهد الجهد كله أن تكون تخرج الحقوق اللازمة لك من عندك سهلة موصولة لأصحابها ببشرتك وطلاقة وجهك ، فقد زعمت الحكماء أن القليل مع علاقة الوجه أوقع بقلوب ذوي المروءات من الكثير مع الميوس والاقباض . وقد قال بعض الحكماء غاية الأحرار أن يقرأ ما يجرون ويحرموا

المؤانسين . فإن مزحت فلا تفرح بالذي يسوء مسامريك .

وأنا أوصيك بخلق قل من رأيه يتخلق به ، وذلك أن محمد شديد ومزقه ضميم ، وبجسب ذلك يورث الشرف وحميد الذكر : ألا يحدث لك الخطاط من حطت الدنيا من إخوانك استهانة به ولا لحقه إضاعة ولما كنت تعلم من قدره استعماراً ، بسل إن زده قليلا كان أنرف * لك وأعطف للقلوب عليك . ولا يحدث لك ارتفاع من رفعت الدنيا منهم تذلا وإشاراً لسل على نظرائه في الحفظ والإكرام ، بسل لو انقبضت عنه كان مادحك أكثر من ذاتك وكان هو أولى بالتمطع عليك : إلا أنت يكون مسلطاً تخالف شدة إهانة وممرته وترجو عنده جر منفة لصديق أو دفع مضرة عنه أو كبتاً لمدو وإزال هوان به . فإن السلطان وخيلاءه وزهوه يحتمل فيه ما لا يجوز في غيره ويعذر فيه ما لا يندر في سواه .

* واعلم أن نشر عاسنك لا يلقى بك ولا يقبل فيك ، إلا إذا كان القول لها على السن أهل المروءات وذوي الصدق والوفاء ، ومن ينجح قوله في القلوب ، من يستنام إلى قوله ويعتدق خبره ، ونحن إن قال صدق أو مدح اقتصد ، يتي بقدر البلاء ، فإن إسرار الثناء على قدر النعمة يولد في القلوب

أحب إليهم من أن يلقوا ما يكرهون ويعطوا* . ومن
أبعدوا من الحق

ولا يدعوك كافر كافر لبعض نعمك من آثر هواه على
دينه ومروءته* أو غدر غادر تصنع لك وختلك عن مالك ،
أن تزهد في الإنعام وتسيء بثقاتك الظنون . فإن هذا موضع
يحد الشيطان في مثله الذريعة إلى استفساد الطبايع وتعطيل
المكارم .

واعلم أن استصغارك نعمك* يكبرها عند ذوي العقول
وسترك لها شراً لها عندهم . فأنشرها بسترها* وكبرها
باستصغارها .

واعلم أن من* الفعل أفاعيل وإن عظمت منافعها ومنافع
أضدادها* فلا يثارها فضيلة على كل حال . فاجعل صمتك
أكثر من كلامك ، فإنه أدل على حكمتك . واجعل عفوك
أكثر من عقوبتك ، فإنه أدل على كرمك . ولا تقرطن
فيه كل الإفراط حتى تطرح الكلام في موضعه والتأديب في
أوانه .

واعلم أن لكل أمرى* سيداً من عمله ساهلته فيه نفسه
وسيس له فيه هواه . فتحفظ ذلك من نفسك وتقاضها الزيادة

فيه ورؤسها على تشييره والمواظبة عليه* (*)

واحذر الحذر كله الاعتذار بأمر ثلاثة ، فإن من عطب
بها كثير وتلافى صعب شديد : أحدهما أن* لا تولي لجائمه
تصرفك . وتقلد مهم أمورك وتتق تقديرك* إلا امرأة
صلاحه موصول بصلاحك وبقاء النعمة عليك هو بقاء النعمة
عليه . وأن لا تأنس أو تغتر بمن تعلم أن بصلاحك فساد
وبارتقاعك انحطاطه وبسلامتك عيب ، فإن من كان هكذا
فأنت ملك موته ، فيحسب ذلك فيمكن عندك . * وأن تجعل
مالك كله في عقدة واحدة أو حيز واحد . أو وجه
متفرّد . إن اجتاحتها جائحة* أو غلبته ثائبة بقيت خسيراً . وقد
قال بعض الحكماء : فرّقوا المنية وطلبوا الأرباح بكل شعب .
* واعلم أنه ليس من الأخلاق التي ذممتها الحكماء خلق* إلا
وقد ينفع في بعض الحالات* ويؤد به شكله* ويقام بإزاء
مثله ويدافع به نظيره . * إنك ستسنى بصحبة السلطان الحازم
العادل وبصحبة السلطان الآخرق الجهول الغشوم ، فالخاسر
العادل يسوسه لك الأدب والنصح والآخرق يسوسه لك الحيلة
والرفق . العادل يعضدك منه ثلاث وتصير نفسه لك على ثلاث ،
فاللواتي يعضدك : تسليط العدل وإنقاذ الحكومة — وفي ذلك
* ينظر في الفصل المشار إليه في تعليقه من ٢٦

صلاح الرعيّة - وإثابة المحسنين الذين إثابتهم تحصين البيضة
والسُّبُل ، والعفو ما يُبلغ به الاستصلاح واكتفي به من
البسط . (واللواتي تصبر نفسه لك عليهنّ الهوى إلى ما وافق
الرأي وأمضى الرأي إلا بعد التثبت حتى تعاونه عليه
النّضحاء) .

* ولكني أوصيك بريضة نفسك حق 'تذللها على الأمور
المحمودة ، فإن * كل أمر ممدوح * هو ما تستثقل النفوس ،
ومما تسرُّ به وتنقلب إليه الأخلاق المذمومة . فإن أهملتها
وإيّاها غلبت * عليك لأنها فيها طبيعة مركبة * وجبلة
مفطورة . فلتكن المساهلة في أخلاقك أغلب عليك من
المعاصرة والحلم أولى بك من العجلة والصبر الحاكم عليك دون
الجزع والعفو أسبق إليك من المجازاة بالذُّوب والمكافأة
بالسوء ، * وكذلك سائر الأخلاق الحمودة والمذمومة . فلتكن
محموداتها غالبية على أفعالك 'محكمة' في أمورك * . فإنك إن
ضبطت * ذلك وقوّمت عليك نفسك عشت رخي البال
قليل * اللهم كثير الصديق قليل العدو * سليم الدين نقي
العرض محمود الفِعال * جميل الأحْدُوث في حديثك وبعد
وفاتك ، وكنت بموضع * الرجاء أن يصل الله لك * السلامة
الآجلة بالنّعمة * العاجلة .

أسأل الله المبتدئ بكلّ نعماً والمؤتي لكل إحسان أن
يُصلي على محمدٍ خيره من خلقه ومفقوته من بريته ، وأن
يتمم عليك نعمته ويشفع لك ما خولك من نعمته بالنعمة
التي يؤمن معها الزوال في جواره . مرافقة أنبيائه ، والسلام
عليك ورحمة الله (١) .

تمت

* تمت الرسالة في الأخلاق الحمودة والمذمومة بعون الله ومنه والله الموفق
للصواب والحمد لله أولاً وآخراً وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه
وسلامه يتلو هذه الرسالة إن شاء الله تعالى « كتاب كتمان السر وحفظ اللسان »
من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أيضاً والله سبحانه المستعان على ذلك
برحمته .

كتمان السر وحفظ اللسان

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، فإني تصفحت أخلاقك وتدبرت أعراقك
وتأملت شيمك ، ووزنتك فعرفت مقدارك وقومتك فعلمت
قيمتك ، فوجدتك قد فاهزت الكمال وأوقيت على التمام
وتوقلت^(١٧) في درج الفضائل ، وكدت تكون منقطع القرين
وقاربت أن تلقى عديم النظير ، لا يطمع فاضل أن يفوتك ولا
يفتح شريف أن يقصر دونك ولا تخشع عالم أن يأخذ عنك .
ووجدتك في خلال ذلك على سبيل تضييع وإهمال لأمرين هما
القطب الذي عليه مدار الفضائل ، فكنت أحق بالعدل

وأقن^(١٨) بالتأنيب ، ممن لم يسبق شأوك ولم يقسم رقتك ،
لأنه ليس بلوماً على تضييع القليل من قد أضاع الكثير . ولا
يهم بإصلاح يومه وتقويم ساعته من قد استحوذ الفساد على
دهره ولا يحاسب على الزلة الواحدة من لا يعد منه الزلل
والنار ولا ينكر المنكر على من ليس من أهل المعروف .
لأن المنكر إذا كثر صار معروفاً ، وإذا صار المنكر معروفاً
صار المعروف منكراً . وكيف يُعجب بمن أمره كله
عجب . وإنما الإنكار والتعجب ممن خرج عن مجرى العادة
وفارق السنة والسجية ، كما قال الأول : خالف تذكر ، وقيل :
الكامل من عدت سقطاته ، وقيل : من استوى يومه فهو
مقبول ومن كان يومه خيراً من غده فهو مفتون ومن كان غده
خيراً من يومه فذلك السعيد المعبود . وفي هذا المعنى قال
الشاعر :

وأنتك أمس خير بنى معد
وأنت غداً تزيد الضعف خيراً
وقال آخر في معنى :
أنت أمروء ملك المعالي
وأنت من وائل صميم
في كل عام تزيد خيراً
وأنت اليوم خير منك أمس
كذلك تزيد سادة عيد شمس
ودلو معروفك الربيع
كالقلب تحنى له الضلوع
يشيمه عنك من يشيع

والأمران اللذان نقتضيهما عليك : وضع القول في غير موضعه
وإضاعة السر بإذاعته . وليس الخطر فيما أسوئك (١٩)
وأحاول حملك عليه بسهل ولا يسير . وكيف وأنا لا أعرف
في دهمري - على كثير عدد أهله - رجلاً واحداً ممن ينتحل
الخاصة وينسب إلى العلية ويطلب الرياسة ويخطب
السيادة ويتحلى بالأدب ويديم الشخانة والزمانة والجلم
والفخامة ، أرى ضبطه للسانه وأحد حياطته لسره .
وذلك أتى لا شيء أصعب من مكايده الطبايع ومفلاحة
الأمهات ، فإن الدولة لم تزل للشهوى على الرأي طول
الدهر ، والهوى هو الداعية إلى إذاعة السر وإطلاق
اللسان بفضل القول . وإنما سمي العقل عقلاً وحجراً -
قال الله تعالى هل في ذلك قسم لذي حجر - لأنه يزوم
اللسان ويخطمه ويشكله ويزينه (٢٠) ويقيد الفضل
ويغلقه عن أن يمضي فرطاً في سبيل الجهل والخطأ
والمضرة ، كما يعقل البعير ويحجر على اليتيم . وإنما اللسان
ترجمان للقلب والقلب خزانة مستحفظة للخواطر
والأسرار وكل ما يعمه ذلك عن الخواص من خير وشر وما
تولد الشهوات والأمهات وتنتج الحكمة والعلم . ومن شأن
الصدر - على أنه ليس وعاء للأجرام ، وإنما يعمي بقدره

الله لا يعرف العباد كيف هي - أن يضيق بما فيه ويستثقل ما حمل منه ، فيستريح إلى تبذره ويكاد أن يشفيه أن يخاطب به نفسه في خلواته حتى يقضى به إلى غيره ممن لا يرعاه ولا يحوطه ، كل ذلك ما دام الهوى مستولياً على اللسان واستعمل فضول النظر فدعت إلى فضول القول .

فإذا قهر الرأي الهوى فاستولى على اللسان منعه من تلك العادة وردده عن تلك الدربة وجشمه مؤونة الصبر على ستر الحلم والحكمة . ولا شيء أعجب من أن المنطق إحدى مواهب الله العظام وينعمه الجسم ، وأن صاحبها مسؤول عنها ومحاسب على ما أخول منها ، أوجب الله عليه استعمالها في ذكره وطاعته والقيام بقسطه وحجته ووضعها مواضع الذم في الدين والدنيا والانفاق منها بالمعروف لفظه لفظه وصرفها عن أضدادها . فلم يرض الإنسان أن عطّلها عما خلقت له مما ينفعه حتى استعملها في ضد ذلك مما يضره ، فاجتمع عليه الإثم اللذان اجتماعاً على صاحب المال الذي كثره ومنعه من حقه ، فوجب عليه إثم المنع وإن كان لم يصرفه في معصية ، ثم صرفه في أبواب الباطل والفسق ، فوجب عليه إثم الانفاق منها . وهذه غايته

الفن والخسران ، نعوذ بالله من .

فاللسان أداة مستعملة لا حمد له ولا ذم عليه ، وإنما الحمد للعلم واللوم على الجهل ، فالجمل هو الاسم الجامع لكل فضل وهو سلطان العقل القام للهوى . فليس قبح الغضب وتسكين قوة الشر وإسقاط طائر الخرق بأحق بهذا الاسم ولا أولى بهذا الرسم * من قبح فرط الرضا وغلبة الشهوات والمنع من سوء الفرج والبطر ومن سوء الجزع والهلع وسرعة الحمد والذم وسوء الطبع والجشع وسوء مناهزة الفرصة * وفرط الحرص على الطلبة وشدة الحنين والرقّة وكثرة الشكوى والأسف وقرب وقت الرضا من وقت السخط ووقت السخط من وقت الرضا ومن اتفاق حركات اللسان والبدن على غير وزن معلوم ولا تقدير موصوف وفي غير نفع ولا جدوى .

واعلم يقيناً أن الصمت سرمداً أبداً أسهل مراماً - على ما فيه من المشقة - من إطلاق اللسان بالقول على جهة التحصيل والتمييز والقصد للصواب ، لما قدمنا ذكره من علة مجاذبة الطباع ولأن من طبع الإنسان محبة الإخبار والاستخبار . وبهذه الجبل التي جبل عليها الناس نقلت الأخبار عن الماضين إلى الباقيين وعن العائب إلى الشاهد ، وأحب الناس أن ينقل عنهم ونقشوا خواصهم في الصخور واحتالوا لنشر

كلامهم بصنوف الخيل . وبذلك ثبتت حجة الله على من لم يشاهد مخارج الأنبياء ولم يحضر آيات الرسول . وقام بحجج الأخبار عن غير تشاعر ولا تواطىء مقام العيان ، وعرفت البلدان والاقطار والامم والتجارات والتدبيرات والعلامات ، وصار ما ينقله الناس بعضهم عن بعض ذريعة الى قبول الأخبار عن الرسل وسلباً الى التصديق وعوناً على الرضا بالتقليد . ولولا حلاوة الأخبار والاستخبار عند الناس لما انتقلت الأخبار وحلت هذا المحل . ولكن الله عز وجل حببها إليهم لهذا السبب ، كما جعل عشق النساء ذريعة للجماع ولذة الجماع سبيلاً للنسل والرقعة على الولد عوناً على التربية والحضانة وبها كان النشوء والنماء ، وحب الطعام والشراب سبباً للغذاء والغذاء سبباً للبقاء وعمارة الدنيا .

ففسر على الانسان الكتمان لإيثار هذه الشهوة والانتفاء لهذه الطبيعة ، وكانت مزاولة الجبال الراسيات عن قواعد ما أسهل من مجاذبة الطباع . فاعتراه الكرب لكتمان السر وعشيه لذلك سقم وكمد بحس له في سويداء قلبه مثل دبيب النمل وحكة الجرب ومثل لسع الدبور (٢١) ووخز الأشافي ، على قدر اختلاف مقادير الخلوم والوزانة والحفة فإذا باح بسرّه فكانه أنشط من عقال . ولذلك قيل : الصدر

إذا نكت برأ ، مثلاً مضروباً لهذه الحال . وقيل :

* ولا بُدّ من شكوى إذا لم يكن صبر *

وليس قولنا : 'طبيع الانسان' على حب الأخبار والاستخبار ، حجة له على الله ، لأنه 'طبيع على حب النساء ومنع الزنا وحبيب اليه الطعام ومنع من الحرام ، وكذلك حبيب اليه أن يخبر بالحق' النافع يستخير عنه ، وجعلت فيه استطاعة هذا وذلك ، فاختر أقوى على الرأي .

ومما يؤكد هذا المعنى في كرب الكتمان وصعوبته على العقلاء فضلاً عن غيرهم * ما رواه عن بعض فقهاءهم أنه كان يحمل أخباراً مستورة لا يحتملها العوام ، فضاقت صدره بها ، فكان يبرز الى العري فيحتفر بها حفيرة يودعها دناء (٢٢) ثم ينكب على ذلك الدن فيحدثه بما سمع فيروح عن قلبه ويرى أن قد نقل سرّه من وعاء الى وعاء .

وكان الأعمش سيئ الخلق غلقاً ، وكان أصحاب الحديث يضجرونه ويسومونه نشر ما يحب طبعه عنهم وتكرار ما يحدثهم به ويتعنتونه ، فيحلف لا يحدثهم الشهر والأكثر والأقل . فإذا فعل ذلك ضاقت صدره بما فيه وتطلعت الأخبار الى الخروج منه ، فيقبل على شاة كانت له في منزله ، فيحدثها

بِالْأَخْبَارِ وَالْفَقْهِ ، حَتَّى كَانَتْ بَعْضُ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ يَقُولُ :
لَيْتَ أَنِّي كُنْتُ شَاةَ الْإِعْمَشِ .

وَشَكَاهُ هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مَا يَجِدُ مِنْ فَقْدِ الْأَنْبِيَسِ الْمَأْمُونِ
عَلَى سِرِّهِ ، فَقَالَ : أَكَلْتُ الْخَلْوَ وَالْحَامِضَ حَتَّى مَا أَجِدُ لَهَا
طَعْمًا ، وَأَتَيْتُ النِّسَاءَ حَتَّى مَا أَبَالِي امْرَأَةً لَقِيتُ أُمَ حَانِطًا ،
فَمَا بَقِيتُ لِي لَذَّةٌ إِلَّا وَجُودَ أَخِي أَضْعُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مَوْوَنَةٌ
التَّحْفِظُ .

وَقَالَ مُعَاوِيَةُ لِعَمْرُو بْنِ الْعَاصِ : مَا اللَّذَّةُ ؟ قَالَ : تَأْمُرُ
شَبَابَ قَرِيشٍ أَنْ يَخْرُجُوا عَنَّا ، فَفَعَلَ . فَقَالَ : اللَّذَّةُ طَرَحُ
الْمَرْوَةِ . وَقَدْ صَدَّقَ عَمْرُو ، مَا تَكُونُ الزَّمَانَةُ وَالْوَقَارُ
إِلَّا بِجَمَلٍ عَلَى النَّفْسِ شَدِيدٍ وَرِيَاضَةٍ مَتَمِّبَةٍ . وَقَالَ بَعْضُ
الشُّعْرَاءِ :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ وُشَاةَ الرِّجَالِ لَا يَدْعُونَ أَدِيمًا صَحْبًا
فَلَا تَقْشُرْ مِرْكًا إِلَّا إِلَيْكَ فَإِنَّ لِكُلِّ نَصِيحٍ نَصِيحًا

وَالسِّرُّ - أَبَقَاكَ اللَّهُ - إِذَا تَجَاوَزَ صَدْرُ صَاحِبِهِ وَأَقْلَتْ
مِنْ لِسَانِهِ إِلَى أُذُنٍ وَاحِدَةٍ ، فَلَيْسَ حَيْثُئِذٍ بِسِرٍّ بَلْ ذَلِكَ
أَوَّلَى بِالْإِذَاعَةِ وَمِفْتَاحُ الشَّرِّ وَالشُّهْرَةِ . وَاتَّمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ
يَشِيَعَ وَيَسْتَطِيرَ أَنْ يُدْفَعَ إِلَى أُذُنٍ ثَانِيَةٍ ، وَهُوَ مَعَ قِلَّةِ

الْمَأْمُونِينَ عَلَيْهِ - وَكَرِبَ الْكِتْمَانُ - حَرِيٌّ بِالْإِنْتِقَالِ إِلَيْهَا فِي
طَرَفَةِ عَيْنٍ . وَصَدَرَ صَاحِبِ الْأُذُنِ الثَّانِيَةِ أَضْيَقٌ وَهُوَ إِلَى
إِفْشَائِهِ أَسْرَعُ وَبِهِ أَسْخَى وَفِي الْحَدِيثِ بِهِ أَعْذَرُ وَالْحِجَّةُ عَنْهُ
أَذْحَضُ ، ثُمَّ هَكَذَا مَنْزِلَةُ الثَّالِثِ مَرَّةً لثَانِيٍ وَالرَّابِعِ مِنَ الثَّالِثِ
أَبْدَأَ إِلَى حَيْثُ انْتَهَى . هَذَا أَيْضًا إِذَا اسْتَعْمِدَ الْحَدِيثُ وَاسْتَكْتَمَ
وَكَانَ عَاقِلًا حَلِيمًا وَنَاصِحًا وَآدَبًا ، فَكَيْفَ إِذَا أَخْبَرَ وَلَمْ يُؤْمَرْ
بِالْكِتْمَانِ وَكَانَ مُمْنٌ بِمِشْيِ النِّسَاءِ وَيُحِبُّ إِفْشَاءَ الْمَغَائِبِ ،
وَكَانَ مِمَّنْ يَنْطَوِي عَلَى غِشٍّ أَوْ شَعْنَاءٍ أَوْ كَانَ لَهُ فِي إِظْهَارِهِ
اجْتِلَابٌ نَفْعٍ أَوْ دَفْعٌ ضَرَرٍ . فَالَّذِي إِذَا ذَاكَ عَلَى صَاحِبِ
السِّرِّ أَوْجِبَ * وَعَمَّنْ أَفْضَى بِهِ إِلَيْهِ أَدْلُ * ، لِأَنَّهُ كَانَ مَالِكًا
لِسِرِّهِ فَأَطْلَقَ عِقَالَهُ وَفَتَحَ أَقْفَالَهُ وَسَرَّحَهُ ، فَأَقْلَتْ مِنْ قَيْنِهِ
رَوِثَقَهُ وَصَارَ هُوَ الْعَبْدُ الْقَنُ الْمَمْلُوكُ لِمَنْ انْتَمَنَ عَلَى سِرِّهِ
وَمَلِكُهُ رَقٌّ رَقْبَتُهُ . فَإِنْ شَاءَ أَحْسَنَ مِلْكَتَهُ بِحِفْظِ ذَلِكَ
لِسِرِّهِ فَجَزَّ نَاصِيَتَهُ وَجَعَلَ رَهْنَةً لِيَوْمٍ * عَتَبَهُ عَلَيْهِ . وَقَالَ
مَنْ يُحْسِنُ الْمِلْكَةَ وَيُحْرِمُ الْحُرِّيَّةَ أَوْ يَضْبِطُ نَفْسَهُ ، فَإِنَّهُ
وَقَدْ لَمْ يُحْرَجْهُ غِشًّا فَأَخْرَجَهُ سُخْفًا وَضَعْفًا . وَإِنْ أَسَاءَ
الْمِلْكَةَ وَخَتَرَ (٢٣) الْأَمَانَةَ * أَطْلَقَ السِّرَّ وَاسْتَرْعَاهُ مَنْ هُوَ
أَشَدُّ لَهُ إِضَاعَةً فَسَفَكَ الدَّمَ وَأَزَالَ النِّعَمَ وَكَشَفَ الْعَوْرَةَ
وَفَرَّقَ بَيْنَ الْجَمِيعِ ، وَإِنْ كَانَ الْمُضِيعُ لِسِرِّهِ * الْوَمَ . قَالَ

الشاعر:

إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه

فصدر الذي يستودع السر أضيق

فمن أسوأ حالاً وأخسر مكاناً وأبعد من الحزم ممن كان

حرّاً مالكا لنفسه فصير نفسه عبداً مملوكاً لغيره مختاراً

للرق من غير أسر ولا قسر . والعبيد لم يصبروا على الرق

الا بذل الأسر والسبأ . ومن كان سرّه مصوناً في قلبه ،

يطلب اليه في الحديث به فأخرجه عن يده ، صار هو

الطالب الراغب الى من لا يوجب له طاعة . ولا يفكر له في

عاقبة ولا يتحرّز له بمصيبة . وكلما كانت اذاعته لأسراره

أكثر كان عدد مواليه أكثر وشقاؤه بخدومتهم أذوم . فإذا

كان أصل السر معلوماً عند عدة أو أقل من العدة فما أعر

استتاره ، غير أنه لا لوم على صاحب الجناية فيه ، إذا

كان ليس هو الذي أفشاه ولا من قبله عليم .

ولو أن أوزن الناس حلاً ملك لسانه وحصن سرّه

وقلّل لفظه ، ما قدر على أن يملك لحظ عينيه وسخنة

وجهه وتغيّر لونه وتبسّمه أو قطوبه ، عندما يجري به من

ذكر ذلك السر أو خطر بباله منه ، فيبدو في وجهه

وتحاييه إذا عرض ذكره أو سنج له نظيره أو مثل أو حضر

من له فيه سبب ، الا بعد التصنع الشديد والتحفّظ المفرط .

فإذا كان يُعرف من هذه الجهات وما أشبهها ويُطلع عليه

بتظنن المرجين والمتعقبين للأفعال والأقوال ، والنظر في

مصادر التدبير وتحايل الأمور ، فيغشوا من هذه الجهات

أكثر مما تشبه السن المذاييع ، البذر ، فكيف إذا أطلق

به اللسان وعود اذاعته القلب ، والمادة أملك بالأدب .

وربما أدركه الحدس وقبضه الظن ، فنالت صاحبه فيه

خدعة بأن يذكر له طرف منه ويوهم أنه قد فشا وشاع

فيصدق الظن فيجعله يقيناً ويفسر الجملة فيصيرها تفصيلاً

فيهلك نفسه ويوبقها . ورب كلام قد ملا بطون^(٢٤)

الطوامير قد عرّف جملته وما فيه الضرر منه بسحابة أو

طاببع أو لحظة مطلع في الكتاب أو حرف تبين من

ظهره . فاستيقظ عند هذه الأحوال واستعمل سوء الظن

يجميع الأنام . فإنه زووي عن النبي صلى الله عليه وسلم

أنه قال : الحزم سوء الظن . وقيل لتقيف : بيم بلفتم من

الشرف والسؤدد ؟ قالوا : بسوء الظن . فلا تعتمد على رجل

في سرّك محمد عقله دون أن محمد ودّه ونصحه ، فإن الأمر

في ذلك كما قال الشاعر :

وما كل ذي لب يؤتيك نصحه ولا كل مؤت نصحه بلييب

ان

ل :

قول

ة لا

ليل

هذه

ة لا

هذه

صح

بحر

، فإنه

يقبل

يلحقه

زها

في تجد

حيث

عها

ولقد استحسن الناس من بعض رجال العراق أنه دخل
على عبد الملك بن مروان فأوقع بالحجاج عنده وسبه . فلما
خرج من عنده تخبر بما كان منه لبعض أصحابه فلامه وأتبه ،
وقال : ما يؤمنك أن يخبر أمير المؤمنين عبد الملك الحجاج
بما قلت فيه - ومرجعك الى العراق - فيضغته عليك ؟ قال :
كلا والله اني ما رطلت بيدي قط أحداً أرزن منه .
وهذا والله - أبقاك الله - الغلط البين والغدر الملتصق
وتحسين فارط الخطأ ، لأنه ليس كل راجع وعافل بناصح
لصاحب السر ، ولو كان أخوه كذلك كان أمره اليه أمم
وشأنه أولى . والأعلى من الناس لا يكلف الأدنى هذه
المؤونة ، وإنما يفعلها الأدنى بالأعلى رغبة ورهبة ونحسنا
عندهم لحاجتهم اليهم .

وأكثر من يذيع أسرار الناس أهلهم وعبيدهم وحاشيتهم
وصبيانهم ، ولهم عليهم اليد والسلطان . فالسر الذي يودعه
خليفة في عامل له يلحقه زينه وشينه أخرى أن لا يكتمه .
وهذا سبيل كل سر يستودعه الجلالة والعظمة ومن لا تبلغه
العقوبة ولا تلحقه اللامة .

وقال سليمان بن داود في حكيمته : ليكن أصدقاؤك
كثيراً ، وصاحب سرك واحداً من ألف (٢٥) . وليس معنى

الحديث أن تعد ممن تعرف ألفاً وتفضي الى واحد بسر ان
لم يكن ذلك الواحد موصفاً لأمانة في السر ، لكنه قيل :
رجل يساوي ألف رجل ورين لا يساوي رجلاً ، وكقول
رسول الله صلى الله عليه وسلم : الناس كإبل مائة لا
يوجد فيها راحلة . فكل ذلك يراد به أن الفضل قليل
والنقص قليل لا على نسب ما يتلقاه الاجتماع من هذه
الأعداد ، لأننا قد نجد الرجل يزن بالآمة ونجد الآمة لا
تساوي قلامة ظفر ذلك الرجل . فإذا كان من تقع عليه هذه
الشريطة معدوماً شيئاً من يوثق بحلمه وعقله وأمانته ونصحه
ومن لا ضرر عليه ولا نفع له في السر الذي يضر ولا يجرم
عليه كتمانها ، ومن قد وآى على نفسه بالسر والحفظ ، فإنه
ليس كل من ضمن فلم يضمن نامناً ولا من استودع فلم يقبل
مستحفظاً ولا من استخلف فلم يخلف خائناً ، وإنما يلحقه
الحمد والذم والأجر والاثم اذا ضمن الأمانة ثم اخترها .
فكان النوم قالوا : لا تودعن سرك أحداً ، والافق تجد
رجلاً فيه الصفة التي وصف بها مسكين الدارمي نفسه حيث
يقول :

اني امرؤ متى الحياء الذي ترى
أنه بأخلاق قليل خداعها

أواخي رجالاً لست أطلعُ بعضهم
على سرٍّ بعض غير أبي جماعها
يظلمون شتى في البلاد وسرهم
إلى صخرة أعيان الرجال انصداًعها
وقيل لرجل : كيف كتمانك للسر ؟ قال : أجعل قلمي
له قبراً أدفنه فيه إلى يوم النشور . وقال الآخر :
* واكتم السر في ضربة العنق *

وهذه صفات موجودة بالأقوال معدومة بالأفعال ،
والمفروور من اغتر بما يعده الواعد منها دون أن يبلو الخبر .
والذي جربناه ووجدناه أن أكثر من يفضى إليه بالشيء
يبلغ من اذاعته ونشره ما لا يبلغه الرسول المستحفظ المعنى
بتبليغ الرسالة المحمود المجازى على أدائها ، حتى ربما كان لا
يبلغ في الإذاعة لمن أرادها أن يقصد للبلاغة من الرجال
المعروف بالنسبة والتقنية (٢٦) فيومنه أنه قد استحفظه
السر فيشيع على لسانه كما يشيع الضوء في الظلمة . وهذا فعل
عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أحب أن يشيع سلامه ،
فقال : من أنتم أهل مكة ؟ قيل له : جميل بن النخيت ،
فأنه فأخبره بإسلامه وسأله أن يكتبه عليه ، فلم يمس وبمكة
أحد لم يعلم بإسلام عمر رضي الله عنه . ثم يكون من أكثر

الأعوان على اظهار السر الاستعداد فيه والتحذير من نشره ،
فإن النهي أغرى لأنه تكليف مشته ، والصبر على التكليف
شديد وهو خطر ، والنفس طيارة متقلبة تعشق الإباحة
وتفرم بالإطلاق . ولعل رجلاً لو قيل له لا تسخ يدك بهذا
الجدار ، وهو لم يحسبها به قط أغرى بأن يفعل . وكذلك
ما حدث به من السر فلم يؤمر بستره لعله ألا يخطر بباله ،
لأنه موجود في طبائع الناس الولوع بكل ممنوع والضجر
بكل محمول . فتريد أن نعلم أن صار الإنسان على ما
منع وإن كان لا يتفقه أحرص منه على ما أيسر من غير علة
ولا سبب * إلا امتهان ما كثر عليه واستطراف ما قل
عنده ، ولم أقبل على من ولى عنه وولى عمن أقبل عليه ، ولم
قالوا : إذا جدت المسألة جد المنع . وقال الشاعر :

الحر يلحى والعصا للعبد وليس لللحف مثل الرد
ولم صار يمتنى الشيء وينذر فيه التذور وينقطع إليه
شوقاً ، فإذا ظفر به صد عنه وأختى عنده ، ولم زهد الملوك
فيما في أيديهم ورغبوا فيما في أيدي الناس . فنقول : إن الله
تبارك وتعالى جعل لكل نفس مبلغاً من الوسع لا يمكنها
تجاوزه ولا تتسع لأكثر منه ، فكان معها فيما دون الوسع
الفقر وخوف الإخوان وفيما مجاوزة عز الغنى وأمن العدم .

وبهذا وبمثله من البخل والحرص استخفت من احتاج اليها وأعظمت من استغنى عنها ، وجعلها تواقاً مشتاقةً مطرفة ملالة كثيرة النزاع والتقلب * يستحكم عليها العنته (٢٧) ويتلى خبرها وصبرها من جزعها . ولولا هذه الخلال سقطت المحن ، فبهي تعظم القليل بالضرورة إليه ان كان من أقواتها ، أو لشدة النزاع والشوق ان كان من طرف شهواتها ، فان صنف الشهوات كثيرة ولكل صنف منها أهل لا يحفلون بما سواه ، ويتعجب من الغريب النادر ويضحكها البديع الطاريء ، إلا أنه إذا كثر الغريب صار قريباً ، وإذا تجاوز المطلوب مقدار وسعها وحاجتها فصار ظهرياً وفضلاً استخفت به وقل في أعينها كثيره . وأعظم الأشياء عندها قدراً ما اشتد إليه الفقر والحاجة وان قل ضرره ، وأهونها عليها ما استغنى عنه وان عظم خطره ، وجعل لما يتوق إليه ويشتاقه مكاناً من قواها له ، فإذا امتلأ ذلك المكان سروراً وقضى ذلك الأثر وطراً بما كان طمع إليه وروي بما كان ظامناً إليه ، انصرف عنه وقلاه (٢٨) وحال عشقه بنفضاً وشوقه ملالاً .

والعلة في ذلك أن الدنيا دار زوال وملال ليس في كيانها أن تثبت هي ولا شيء مما فيها على حال واحدة ، وإنما الثبوت الدائم لدار القرار . فالسامة تلحقها في محبوبيها كما

تلحقها في مكروها ، كما يصيب المنتهي من الطعام والشراب والباه ، فإنه ليس شيء أبغض إلى من يتناهى فيه إلى غايته من النظر إلى ناحيته فضلاً عن ملابسته ، إلى وقت عودة السبب الأول .

فإذا كانت الطبايع تتشابه ولكل حاسة قوة ، فإذا امتلأت تلك القوة من محبوسها لم تجد لها وراه * طعماً ولا ربحاً وعاد عليها بالضرر . فبعض النظر يعني والصوت الشديد يسم والرائحة المنتنة تبطل المشم والاطعمة الحارة المحرقة تبطل حاسة اللسان ، وتطرف كل واحدة منها ، فبين الطبيب عند من بعد عهده به أو الجماع والسباع وبينه عند من هو مغموس فيه يوم بعيد جداً في الحلاوة وحسن الموقع . كل ذلك ما لم يأت المال والعلم ، فإنه كلما كثر كان أشهى وأعجب . لأن قصد الناس له ليس لطلب مقدار الحاجة وسد الخلة كما يريد أهل القناعة والزهادة ، وإنما يراد لقمع الحرص ، والحرص لا حد له ولا نهاية ، لأنه سعي لا حاجة وإيضاع لا لبقية . وهكذا قال رسول الله ﷺ : لو أن لابن آدم واديين من ذهب لا يبتغي إليهما ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب . وقال بعض الحكماء

من كان لم يَفْقَهْ بما يُغْنِيهِ
فكلُّ ما في الارض لا يُغْنِيهِ
قال الله عزَّ وجلَّ وَيُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا . وقال وائت
لحبُّ الخير لشديد . وقال الشاعر :

والناسُ ان شِيعتْ يُطَوُّنَهُمْ
فمَيَّوْنَهُمْ في ذاك لا تشيع

فأما الحديثُ الذي جاء : لا يَشْبَعُ أربعٌ من أربعة :
أرضٌ من مَطَرٍ وعَيْنٌ من نَظَرٍ وأُنْثَى من ذَكَرٍ وعالمٌ من
من عِلْمٍ ، فإنَّ العَيْنَ لا تشبعُ في الجُمْلَةِ كما لا يشبعُ
الْحَيْشُومُ من الاستِشْاقِ . فأما مَنْ يَشْبَعُ من صَنَفٍ بما
يراه دون صَنَفٍ فَإِنَّهُ يَشْبَعُ وَيَرَوِي وَيَصْدُقُ وَيَصْدِفُ إلى
غيره . وأما العِلْمُ فَإِنَّهُ أَوْسَعُ من أَنْ يُحَاطَ بِهِ ، فمن
طَلَبَ لَشَرِّهِ وفَخْرَهُ فَإِنَّهُ لَا حُدَّ لَهُ وَلَا نِهَايَةَ ، ولم يَزِدْ لَهُ
طَلِباً إلا ازْدَادَ فِيهِ رَغْبَةٌ ، ومن طَلَبَ مِنْهُ مَقْدَارَ كِفَايَتِهِ
وحَاجَتِهِ كَفَاهُ مِنْهُ الْيَسِيرُ . على أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ من كَثْرَةِ عِلْمِهِ
أَنْ يَرَى فِيهِ الْعَنَى والكِبْرِيَاءُ أَيْضاً ، وقد يَمْلِكُ كُلُّ شَيْءٍ كَمَا يَمْلِكُ
وَيَقْتُلُ الْعَيْنُ أَيْضاً مِنْهُ وَمِنَ الْمَالِ .

وقيل : اثنان منهومان طالبُ عِلْمٍ وطالبُ دُنْيَا . وهذه
النَّهْمَةُ تدلُّ على الخُرُوجِ عن العَقْلِ لِأَنَّ النَّهْمَ تَجَاوُزَ الْقَدْرِ .

وأما الحرص على الممنوع الذي لا يَتَفَتَحُ بِهِ والعجب مما لا
يَتَعَجَّبُ مِنْ مِثْلِهِ ، فليس من أخلاق العقلاء ، وما لم يكن في
أخلاقهم فلا نَظَرَ فِيهِ وَلَا قِيَاسَ عَلَيْهِ . وإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْ فَعْلٍ مِنْ
استوحش من الحجة وشرد عن علم العلل والأسباب .

وافشاء السر إنما يركل بالخير الرائع والخطب الجليل والدفين
المغمور والأشنع الأبلق ، (٢٩) مثل سر الأديان لقلبة الهوى
عليها وقضاغن أهلها بالاختلاف والتضاد والولاية والعداوة ،
ومثل سر الملوك في كيد أعدائهم ومكنون شهواتهم ومستور
تدبيراتهم ، ثم من يليهم من العظماء والجلَّة ، لنفاسة العوام على
الملوك وأنهم سماء مظلة عليهم أعينهم إليها سامية وقلوبهم بها
معلقة ورغباتهم ورهباتهم إليها مصروفة . ثم عداوات
الاخوان ، فإنما صارت العداوة بعد المودة أشد لاطلاع الصديق
على سر صديقه واحصائه معايبه ، وربما كان في حال الصداقة
يجمع عليه السقطات ويحصي الميوب ويحتفظ بالرقاع ، أرساداً
ليوم النبوة (٣٠) واعداداً لحال الصريمة . وقد شك بعض
الملوك تنقَّب العوام عن أسرار الملوك فقال :

ما يريد الناس منا ما ينام الناس عنا
لو سكننا باطن الارض لكانوا حيث كنا
إنما مهم أن ينشروا ما قد دفنا

ولم تر حب الطعن على الملوك والتجسس عن أخبارهم وعشق
نشر المعاييب واستحلال الغيبة ظاهر في طباع الناس لا يكاد
ينجو منه أحد منهم الا من رجح حلمه وعظمت مروءته وظهر
سؤدده واشتد ورعه ، حتى قال بعضهم : الغيبة فاكهة النساك
وروا عن بعضهم أنه قال : الفاسق لا غيبة له . وقال آخر :
أتراعون من ذكر الفاسق ؟ اذكروه يعرفه الناس .

ولم تر الله جل ثناؤه رخص في اغتياب مؤمن ، بل ضرب
المثل في الغيبة بأكره ما تكرهه النفوس وما تختار منه الموت
على الحياة ، فقال ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أوجب
أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه . واغتياب الناس
جميعاً خطة جور في الحكم وسقوط في الهمة وسخافة في الرأي
ودناءة في القيمة وكلفة عريضة وحسد ونفاسة قد استحوذت
على هذا العالم وغلبت على طبائعهم وتوكدت لسوء العادة عندهم
ولعلوا الشر على الخير . وكثرة الدغل والنغل (٣١) والحسد في
القلوب . فلست ترى منها ناجياً ، أما ناظر بعين عدل
وانصاف فهو يرى ما ينكر فيبدو في وجهه ولسانه ، وأما
ناظر بعين البغضاء والعداوة فهو كثيراً ما يجد في الغيوب في
عدوه ما يعينه على التخرض عليه فيقويها . ويريد فيها ، وان
عدم الحق نقول وقبح الحسن وزاد في قبح القبيح . والحديث

كله الا ما لا بال به ذكر الناس ولنفر وخطل وهجر وهذا
وغيبة وهمز ولز . وقال بعض الحكماء لابنه : يا بني انما الانسان
حديث فإن استطعت أن تكون حديثاً حسناً فافعل .

وكل سر في الارض انما هو خبر عن انسان وطبي عن
انسان ، فله في الغيبة أكثر الحظ ، وجلبها كلفة لا ضرورة .
يرى صاحبها أنه قد أهمل بحاسبة نفسه وغفر ذنوبها وألقى
عيوبها ، وقصد قصد غيره فتشاغل عما يعنيه بما لا يعنيه ،
فأنكر أقواله وأفعاله وهجن تدبيره وتعجب من مقابجه
وجهد نفسه في تفقد أموره ، ليس ذلك عن عناية بصلاحه
ولا حبة لتقويمه وتهذيبه ولا أنه مسيطر عليه ولا محمود عنده
على ما عني به من شأنه ، بل هو عنده عين المذموم . وهذا جل
حديث البشر وشغلهم في الليل والنهار .

قال بعض الحكماء : فضول النظر تدعو الى فضول القول
وفضول الخواطر تبعث على اللهو واخطل . ولو كان الرجل
لا يتكلم الا بما يعنيه ولا يتكلف ما قد كفيه ، قل كلامه .
ولو حكم العدل في أموره وفيما بينه وبين خالقه وبينه وبين
أخوانه ومعامله ، لطاب عيشه وتحتف مؤونته والمؤونة
عليه . فإن الله تبارك وتعالى لم يخلق مذاقاً أحلى من العدل
ولا أروح على القلوب من الانصاف ، ولا أمر من الظلم ولا

أبشع من الجور .

وقال بعض المتقدمين : إنما يعرف الظلم من حكم به عليه .
ومن استعمل العدل دله على أن الناس يحذون من طعمه وطعم
الظلم إذا فعله بهم مثل الذي يحذ إذا ظلم ، فكره لهم ما
كره لنفسه فأنصف ولم يظلم . ويتظالم الناس فيما بينهم بالشره
والحرص المركب في أخلاقهم ، فلذلك احتاجوا إلى الحكم
وقد أطلق لهم تصريحها ، وأخلاقهم وأماناتهم التي ردت إليهم
الأحكام فيها ما جنيته عليهم أكثر مما يطالبهم به الخصوم .
وقال بعض الحكماء : إن من أصعب الأعمال أنصافك في
نفسك ، ومؤاساتك أخاك في مالك ، وذكر الله ، أما أني لا
أعني قول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر - وإن
ذلك لمن ذكر الله - ولكن ذكره عندما يعرض من الأمور ،
فإن كان طاعة الله فعلته وإن كان معصية الله اجتنبته .

وروي عن بعضهم أنه قال : ثلاثة في ظل عرش الله يوم
لا ظل إلا ظله : رجل لم يعب أخاه بعيب فيه مثله حتى يصلح
ذلك العيب من نفسه فإنه لا يصلحه حتى يهجم على آخر فتشغله
عيوبه عن عيوب الناس ، ورجل لم يقدم يداً ولا رجلاً حتى
يعلم أن طاعة الله هو أم في معصيته ، ورجل لم يلتبس من
الناس إلا بمثل ما يعطيهم من نفسه . أما تحبون أن تنصفوا ؟

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رحم الله عبداً
أنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله وشغل عيبه عن
عيوب الناس .

وقال عيسى بن مريم : يا بني إسرائيل أرى أحدكم القذاة
في عين أخيه ويغيب عن الجذع المتعرض في عينه (٣٢) .
وقيل لعيسى بن مريم : ما أفضل أعمالك ؟ قال : تركي
ما لا يعنيني .

وقال عمرو بن عبيد : أعيتني ثلاث خلال : تركي ما لا
يعنيني ودرهم من حله وأخ إذا احتجت إلى ما في يديه بذله لي .
وما أحق من أحصيت ألفتاه وليس من قول يندر منه
الا لديه رقيب عتيد ، ومن أحصيت عليه مثاقيل الذر
واستشهد عليه جلده وجوارحه ، أن يضبط لسانه . وقد
جاء في بعض الآثار : من عد كلامه من عمله قل كلامه إلا
فيما يعنيه .

وكل امرئ فحبيب نفسه غير مأخوذ بغيره ، وهو
الوحيد دون الأهل والولد والقرابة . وقال الله جل ثناؤه -
وقوله الحق - : كل امرئ بما كسب رهين . وقال :
يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا
اهتميتم .

وليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا مع السيف
وقوط وقال بعض الحكماء : شيان لا صلاح لأحدهما إلا
بالآخر : اللسان والسيف
أنت إذا تأملت أكثر ما يتناجى به المتحدثون ،
وجدت أكثر السائلين يسأل عما لا يعنيه ويكثر لما لا
يكرهه ويعنى بما لا ينفعه ولا يضره ، وأكثر المجيبين يجيب ولم
يسأل ويتكلف ما لا يعلم ، ولو قال له قائل من سألك
لافتضح ولو حاجته فيما ادعى ووقفه لا تقطع . قال الله عز
وجل : قل ما أسئلكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين .
ومر هشام بن عبد الملك ببعض أهل الكلفة والفضول
وعليه حلة ذبالة يسحبها في التراب ، فقال له المتكلف : يا هذا
إنك قد أفسدت ثوبك ، قال وما يضرك من ذلك ؟ قال :
ليتك ألقيته في النار ، قال : وما ينفعك من ذلك ؟ فأفحمه
أقبح الإفحام . ولو تهياً للمتكلفين في كل وقت مثل صرامة
هشام لا زجر من به حياء منهم ولقلت الفضول والكلف
والغيبة .
قالوا : وليس من أجده أدل من مغتاب ، لأنه يخفي
شخصه ويظلم من حسه ويفض من صوته ، ولا يريد بما يناله
من ذلك إلا بأن يرفع من قدر خصمه ويعظم من شأنه .

قال معاوية : أقدرني من النبيل ؟ هو الذي إذا رأته
هبتة وإذا غاب عنك اغتبتة . ودي لعمري سبيل العظماء
عند العوام والملوك عند الرعية والسادة عند العبيد ، فلم يأخذ
المغتاب من اغتابه شيئاً بعرضته (٣٣) إياه إلا والذي أعطى
من الهيبة عند حضوره أكثر منه . ولو كان المغتاب لا يستتر
من الغيبة إلا من يخاف سطوته كان أعذر ، ولكن اللؤم
المتمكن منه يحمله على اغتياب عبده وأمه فضلاً عن كفته
ونظيره ، ويفتات الرجل عند عدوه والمشاحن له مساعدة له
بالسخر وتقرباً إليه بالمهانة والضعف ، من غير أن يكون له
عليه طول أو يلتبس منه على ما تقرب به إليه جزاء أو
شكوراً . ثم لعله يتكفى إلى الذي اغتابه وقصبه (٣٤) من
ساعته ويومه ، فيعطيه في عدوه الذي اغتابه عنده أيضاً مثل
ذلك وأكثر منه ، لا لعله أيضاً ولا مرفق ولا ربح أكثر من
الذلة التي يجدها في نفسه والضعف في منته ، كما يعظم الغني
بغير ثمن ويحتقر الفقير بغير سبب ، فحق كوشف أو عوتب
لبسته ذلة أخرى من الكظة بالمعاذير الكاذبة والاعتصام
بالإيمان الفاجرة ، ومن كانت هذه دربه فهو حري أن
يطلع على دخلة أمره فلا يقبل منه عذر ولا يصدق في قول
ولا حلف ، وقد تسربل الذلة وتدرع الخضوع . وليس من

تفكر فقد لها . فانظر يا أيُّ الأمرين قطعت عمرك : أبالحكمة
أم باللغو . وانتظر كيف وصف الله تعالى مَنْ أتى عليه بخير
من عباده فقال : والذين هم عن اللغو معرضون . وقال :
وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه . وقال : وإذا مروا كراماً .
وصان عنه أسماع أهل الجنة وألسنتهم فقال : لا يسمعون فيها
لغواً ولا تأنثياً إلا قبيلاً سلاماً سلاماً .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : العبادة عشرة أجزاء
تسعة منها في الصمت . وقال علي بن أبي طالب رضوان الله
عليه : أفضل العبادة الصبر وانتظار الفرج .

وقال بعض الحكماء : لو لم يكن للصامت في صمته إلا الكفاية
لأن يتكلم بكلام ويحكى عنه محرّفاً فيضطر إلى أن يقول :
ليس هكذا قلت إنما قلت كذا وكذا فيكون إنكاره إقراراً
واعترافه بما حكي عنه شاهداً لمن وشى به رادعاً التحريف
غير مقبول منه إلا أن يأتي ببينة* بها ، لكان ذلك من أكثر
فضائل الصمت . وربما ذكر رجل الله تبارك وتعالى ، فكان
ذلك الذكر أمثاله ، لأنه قد يدخله في باب تفخيم الذنب الحقيق
والإغراء والتحريض ، فيسفك الدم الحرام أو يعظم الجرح
الصغير ، بل ربما ضحك وتبسم فأغرى وحرض وأثم وأوبق .
قال بعض الشعراء :

فإن شئت أدلى فيكما غير واحد
بحجارة أو قال عندي في سر
فإن أنا لم أمر ولم أئنه عنكما
ضحكت له حتى يلج ويستشري
وقالت العرب : مَنْ كفي شر نلقه وذذببه وقبببه (٣٤)
فقد كفي الشر .

وهذا باب لولا أن تشغل القارئ لهذا الكتاب بغير ما
قصدا إليه وعزمنا عليه لأتينا عليه ، وهو كثير موجود لمن
طلبه . وجلة واحدة فيها كفاية ، فإنا تختلف الألفاظ التي تجعل
كسوة لتلك المعاني . والا فإنك إذا نظرت إلى جميع ضرور
الدنيا وجدت أولها كلمة غارت فجنت حرباً عواناً كحرب
بكر وتغلب ابنسي وائل وعيس وذبيان ابنسي بغيض والأوس
والخزرج ابنسي قبيلة والفجار الأول والفجار الثاني وعامة حروب
العرب والعجم . وإذا تأملت أخبار الماضين لم تحص عدد من
قتله لسانه وكان هلاكه في كلمة بدرت منه . وليس العجب من
أفضى بسرّه إلى مَنْ ليس له بموضع من تقدمت معرفته وزالت
الشكوك عنه في أمره ، ولكن العجب عين العجب من استنام
بسرّه إلى من لم يقدم معرفته ومن أنس إليه* عن اللقاء واللقاءين
دون معرفة العين والاسم والسبب والنسب ، فانخدع في أول

وملة وغبن عقله قبل أن يعين دينه وماله وتضاعفت عليه البلية
 بطول الحسرة ، فإن البلاء عارض ومكتسب ، فكان العارض
 الساهي وما خولته الأقدار سرّاً بعد اجتهد صاحبه رأيه
 وحيلته في طلب الخير . وصواب تدييره فيه أسهل وأيسر على
 العاقل المعتاد للصواب ، وإن كان كل مكروه مرّاً بشعاً .
 وإنما الكرب اللازم والداء العياء ما اجتمع على صاحبه مع
 الفجعية والحاجة والنقص والذلة غم الندامة والأسف على ما
 فرط منه ، إذ كان الجاني على نفسه بيده . ولهذا الكلام نظر
 نكره التطويل به والمعنى واحد . وإنما تحتاج من هذا ومثله
 مما قدمنا ذكره في الكتاب إلى حفظ السر ووزن القول ، وإلى
 هذا أجرينا وله قصداً . ولو اقتصرنا في هذا الكتاب على حرف
 بما فيه لكان بإذن الله كافياً لمن كان له لب وعقل ، لكن
 الاحتجاج أوكد والإيضاح أبلغ ، والحظ في هذا القول كله
 لمن عقله والآخذ به أوفر * منه بمن قاله ولم يعمل بقوله ، لأنه
 إنما يحتسب ثمرة الصواب * ويختلف برفقه من صدق قوله بفعله .
 فإن الحكمة قول وعمل ، وإنما حظ القائل ما لم يستعمل عليه
 وقوله حظ الوافين ، وحسن الصفة تزول بزوالها وتنقطع
 بانقطاعها ، ومُدتها - إلى أن يملأ القائل والسامع - يسيرة .
 والأفعال الحمودة متصلة النفع والشرف والفضيلة في الحياة

وبعد الوفاة ومذخورة للأعقاب وحديث جميل ونشر باق على
 مرّ الجديدين . وأكثر من ذلك كله توفيق الله وتسديده ،
 فإن القلوب في يده والخيرات مقسومات من عنده . وحسبنا
 الله ونعم الوكيل (*) .

* تم كتاب كتان السر من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ بمون الله
 وتأييده ومشيبته وتوفيقه والله الموفق للصواب برحمته . والحمد لله أولاً وآخراً
 وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامه .

فلسفة الجد والهزل

من تصنيف

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
إلى محمد بن عبد الملك الزيات

بسم الله الرحمن الرحيم

«أُجعلتُ فِدَاكَ، ليس من أجل اختياري التَّخَلُّعِ على
الزُّرْعِ أَقْصَيْتَنِي وَلَا عَلَى مِيلِي إِلَى الصَّدَقَةِ دُونَ اعْطَائِي الْخِرَاجِ
عَاقِبَتَنِي وَلَا لِبُغْضِي دَفْعِ الْأَتَاوَةِ وَالرِّضَا بِالْجُزْئِ حَرَمْتَنِي،
وَلَسْتُ أَدْرِي لِمَ كَرِهْتَ قُرْبِي وَهَوَيْتَ بُعْدِي وَاسْتَنْقَلْتَ
رُوحِي وَنَفْسِي وَاسْتَطَلْتَ عَمْرِي وَأَيَّامَ مُقَامِي، وَلِمَ مَرَّكَ

سَيِّئِي وَمُصِيبِي وَمَاءُكَ حَسَنَتِي وَسَلَامَتِي ، *نعم حتى ساءك
 *عزائي وتجملي بقدر ما سرك جزاعي وتضجيري ، وحتى
 تميت أن أخطيء عليك فتجعل خطأي حجة لك في
 ابعادي وكرهت صوابي فيك خوفاً من أن تجعده ذريعة *لك
 الى *تقريبي . *فإن كان ذلك هو الذي أغضبك وكان هو
 السبب لموجدتك * ، فليس - *جعلت فداك - هذا الحقد
 في طبقة هذا الذنب ولا هذه المطالبة *من شكل هذه الجريمة .
 ولو كان اذ لم يكن في وزنه وقع قريباً واذ لم يكن عدله
 وقع مشبهاً ، كان أهون في موضع الضرر وأسهل في مخرج
 السماع . فأي شيء *بقيت للعدو المكاشف وللناقد
 الملائف *والمعتمد المصير *والقادر المدلل ؟ ومن عاقب
 على الصغير بعقوبة الكبير وعلى الهفوة بعقوبة الاصرار وعلى
 الخطأ بعقوبة العمد . وعلى معصية *المسير بعقوبة معصية
 *المعلن ؟ ومن لم يفرق بين الأعالي والأسافل وبين الأقاصي
 والأداني عاقب على الزنا بعقوبة *السرقعة وعلى القتل بعقوبة
 البغز . ومن خرج الى ذلك في باب العقاب خرج الى مثله
 في باب الثواب ، ومن خرج من جميع الأوزان وخالف جميع
 التعديل كان بغاية العقاب أحق *وبه أولى .
 والدليل على شدة غيظك وغلبيان صدرك ، قوة حركتك

وابطاء فترتك وبعده الغاية في احتياك . ومن البرهان *على
 ثبات الغضب وعلى كظم الذنب *تمكن الحقد ورسوخ الغيظ .
 وبعده الوتة وشدة الدولة . وهذا البرهان صحيح ما صح
 النظم وقام التعديل واستوت الأسباب . ولا أعم نارا أبلغ في
 احراق أهلها من نار الغيظ ولا حركة أنقض لقوة الأبدان من
 طلب الطوائل *مع قلعة الهدوء والجهل بمنافع الجمام واعطاء
 الحالات أقسامها من التدبير . *ولا أحلم تجارة أكثر خسرانا
 ولا أخف ميزانا ، من عداوة العاقل *العالم وإطلاق لسان
 الجليس المداخل والشعار دون الدثار والخاص دون العام .
 والطالب - *جعلت فداك - بعرض ظفر ما لم يخرج
 المطلوب واليه الخيار ما لم تقع المنازلة . ومن الحزم ألا يخرج
 الى العدو الا ومعك من القوى *ما يغر الفضة التي *ينتجها
 له الاخراج . ولا بد أيضاً من حزم يحدرك مصارع البغي
 *ويخوفك ناصر *المظلوم .

وبعد - *أبقاك الله - فأنت على يقين من *موضع ألم الغيظ
 من نفسك ، والغيظ عذاب ، *ولربما زاد التشفي في الغيظ
 ولم ينقص منه . ولست على يقين من نفوذ سهمك في *صيدك
 كما أيقنت بموضع الغيظ من صدرك . والجازم *لا يلتبس شفاء
 غيظه باجتلاب ضعفه *ولا يطفئ نار غضبه *تأخر عقوبة

مَنْ أَغْضَبَهُ وَلَا يَسُدُّ سَهْمَهُ إِلَّا وَالْفَرْضُ مُمَكِّنٌ وَالْغَايَةُ قَرِيبَةٌ
 وَلَا يَهْرَبُ * وَالْمَهْرَبُ مَعْجَزُهُ . إِنَّ سُلْطَانَ الْغَيْظِ غَشُومٌ وَإِنَّ
 حُكْمَ الْغَضَبِ جَائِرٌ ، وَأَضْعَفُ مَا يَكُونُ الْعَزْمُ عَنِ التَّصَرُّفِ
 أَضْعَفُ مَا يَكُونُ الْحَزْمُ . وَالْغَضَبُ فِي طِبَاعِ شَيْطَانٍ وَالْهُوَى
 يَتَصَوَّرُ فِي صُورَةِ امْرَأَةٍ ، فَلَا يُبْصِرُ مَسَاقِطَ الْعَيْبِ وَمَوَاقِعَ
 الشَّرَفِ إِلَّا كُلُّ مَعْتَدِلٍ الطَّبَاعِ وَمَعْتَدِلُ الْأَخْلَاطِ وَمُسْتَوِي
 الْأَسْبَابِ . وَاللَّهُ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ لَكَ مَرْفَ الرِّضَا مَخَافَةَ
 جَوَازِيهِ إِلَى مَرْفِ الْهُوَى ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَرْفِ الْغَضَبِ وَبَغْلَبَةِ
 الْغَيْظِ ، وَلَا سِيَّامَنْ * قَدْ تَعَوَّدَ إِمَالَةَ النَّفْسِ وَلَمْ يَعُوِّدْهَا الصَّبْرَ
 وَلَمْ يَعْرِفْهَا مَوْضِعَ الْحُظِّ فِي تَجَرُّعِ * مَرَارَةِ الْعَقُوبِ ، * وَأَمَّا الْمُرَادُ
 مِنَ الْأُمُورِ عَوَاقِبُهَا لَا عَوَاجِلُهَا . وَلَقَدْ كُنْتُ أَشْفَقُ عَلَيْكَ مِنْ
 إِفْرَاطِ السَّرُورِ فَمَا ظَنُّكَ بِإِفْرَاطِ الْغَيْظِ . وَقَدْ قَالَ * بَعْضُ
 النَّاسِ : لَا خَيْرَ فِي طَوْلِ الرَّاحَةِ إِذَا كَانَ يُوْرِثُ الْغَفْلَةَ وَلَا فِي
 * طَوْلِ الْكُفَايَةِ إِذَا كَانَ يُؤَدِّي إِلَى الْمَعْجَزَةِ وَلَا فِي كَثْرَةِ الْغَنَى
 إِذَا كَانَ يُخْرِجُ إِلَى الْبَلَدَةِ .
 جُعِلَتْ قِدَاكَ ، إِنَّ دَاءَ الْحُزْنِ وَإِنْ كَانَ قَاتِلًا فَإِنَّهُ دَاءٌ
 مِمَّا طَلَّ * وَسَقَمُهُ سَقَمُ مَطَاوِلٍ وَمَعَهُ مِنَ * التَّمَهُّلِ بِقَدْرِ قُنْطَرِهِ
 مِنْ * أَنَاةِ الْمِرَّةِ (٣٦) السُّودَاءِ . وَدَاءُ الْغَيْظِ سَفِيهِ * طِينِاشٍ
 وَعَجُولٍ فَحَاشَ يَعْجَلُ عَنِ التَّوْبَةِ * وَيَقْطَعُ دُونَ الْوَصِيَّةِ وَمَعَهُ

مِنْ الْخُرْقِ بِقَدْرِ قُسْطِهِ مِنَ التَّهَابِ امْرَأَةُ الْحِمَاءِ . * وَالْعَجُولُ
 يَخْطِئُ ، وَإِنْ ظَفَرَ ، فَكَيْفَ بِهِ إِذَا أَخْطَى . عَلَى أَنْ اخْفَاقَهُ يَزِيدُ
 فِي حَقِيقَةِ خَطْئِهِ كَمَا أَنَّ ظَفْرَهُ لَا يَنْتَقِصُ مِنْ مَقْدَارِ زَلَلِهِ . وَأَنْتَ
 رُوحٌ كَمَا أَنْتَ وَحْشِي مِمَّنْ قَرْنَكَ إِلَى قَدَمِكَ ، وَعَمَلُ الْآفَةِ فِي
 الدِّقَاقِ وَالْعَتَاقِ أَسْرَعُ وَحَدَّهَا عَنِ الْغَلَاظِ الْجَفَاءِ أَكْلٌ . فَلِلَّذَلِكَ
 اشْتَدَّ جَزَاعِي لَكَ مِنْ سُلْطَانِ الْغَيْظِ وَغَلْبَتِهِ .
 وَاللَّهُ لَوْ كُنْتُ ابْتَلَيْتُ مِرَارَ بَابِكَ وَأَبْطَلْتُ * بِمِرِّ الْبَاطِلِ
 وَرَدَّدْتُ الْقَطَائِعَ كُلَّهَا وَنَقَضْتُ الشُّرُوحَ بِأَسْرَافِهَا وَأَفْسَدْتُ
 تَنَاجِيكَ وَقَتَلْتُ كُلَّ شَطْرِنَجِي لَكَ وَرَفَعْتُ مِنَ الدُّنْيَا فِرَافِهُ
 الْحَيْلَ وَجَعَلْتُ الْمَرْجُوحَ كُلَّهَا حِمِي * وَكُنْتُ * جَذَامَ الْمُرْدَانِ
 وَرَسَامَ الْأَوْلَادِ وَمَسَخْتُ جَمِيعَ الْجَوَارِي فِي صُورَةِ أَبِي رَمْلَةٍ
 وَرَدَّدْتُ شَطَاطَ حَلْقِكَ إِلَى جَعُودَةٍ * أَنِّي حُشَّةٌ وَكُنْتُ أَوَّلُ
 مَنْ مِّنْ بَيْعِ الرِّجَالِ فِي النِّخَاسِ . وَفَتَحَ بَابَ الظُّلْمِ
 أَصْحَابُ الْمَظَالِمِ وَحَوَّلَ إِلَيْكَ عَقْلَ أَبِي دِينَارٍ وَطَبِيعَتُ عَلَى
 بَيَانِ مَانُويَه * وَأَعْنَتُ عَلَى مَوْتِ الْمُخْتَصِمِ وَغَضِبْتُ * لِمَصْرَعِ
 الْأَشْنِ وَاسْتَجَبْتُ * لِلدَّيْكَ الْأَفْرَقِ وَأَحْبَبْتُ صَالِحَ بَنِ حُنَيْنٍ
 وَأَحْوَجْتُكَ إِلَى حَاتِمِ الرِّيشِ وَكَانَ أَبُو * الشَّيَاحِ صَدِيقِي
 وَالْفَارِسِيُّ * مِنْ شَيْعَتِي * وَرَفِيتُ حِمْرَةَ رَفِيسَةٍ شَدِيدَةٍ وَرَكَلْتُ
 رَكْلَةً * صَعْبَةً (٣٧) لَكِنْ * مَا تَرَكْبُنِي بِهِ مَرْفًا

ولكن في هذا العقاب *متعدياً.

جعلت فداك ، لا تتمرض لعداوة عقلاء *الرواة والصفية
حفاظ المثالب واللسان من قد عرف *بالصدق والتواخي
وبقلة الخطئ *والتكسب ، ما وجدت عن ذلك مندوحة
ووجدت المذهب عنه واسعاً . ولا تعاقب وأدأ وار
اضطرك الواد ، ولا تجعل طول الصحبة سبباً للتضجر .
واصبر على خلقه خير من جديد غيره . وصداقة المستطرف
*تغرر *وملاحة الصديق ألفن . والعلم بأقدار الذنوب غامض
وحُدود الذنوب في العقاب خفية . ولن يعرف العقاب من
يجهل قدر الذنب ، والأجرام كثيرة الأشكال ومتفاوتة في
*الأقدار . وإذا أردت أن تعرف مقدار الذنب اليك من
مقدار عقابك عليه ، فانظر في علته وفي سببه وإلى معدنه
الذي منه نجم وعشته الذي منه درج ومفرسه الذي فيه
كنبت ، وإلى جهة صاحبه في التنايع (٣٨) والتبرع وفي النزوع
والثبات ، وإلى قبحته عند التقريع وإلى حيائه عند التعريض
وإلى فطنته عند الرشق والتودية . فإن فضل الفطنة ربما
دل على فرط الاكتراث ، وعلى قدر الاكتراث يكون الاقدام
والاحجام . فكل ذنب كان سببه الدالة وضيق صدر
وغلظ طباع وحدة مرار ، *من جهة تأويل أو من جهة

*غلظ في المقادير أو من طريق *فرط الأنفة وغلبة طباع
الحية *من بعض الجفوة أو لبعض *الأثرة ، أو من جهة
استحقاقه عند نفسه وفيما زين له من عمله ، وأنه مقصر به
مؤخر عن مرتبته ، أو كان مبلتاً عنه أو مكذوباً عليه ،
وكان ذلك جائزاً عليه غير ممتنع فيه ، فإذا كانت ذنوبه من
هذا الشكل وعلى هذه الأسباب وفي هذه المجاري ، فليس
يقف عليها كريم . ولا يلتفت لها حليم . ولست أسميه بكثرة
معروفه كريماً ، حتى يكون عقله غامراً لعلمه وعلمه غالباً لطبعه ،
وحق يكون عالماً بما ترك وعارفاً بما أخذ . واسم الحليم جامع
للكظم والقدرة والفهم . فإذا وجدت الذنب بعد ذلك لا سبب له
إلا البغضة ، فلم ترض لصاحبه بعقاب دون قعر جهنم ،
لعدرك كثير من العقلاء ولصوب رأيك عالم من الأشراف .
ومتى كانت علته طبيعة الداء وخلقه الشرارة والتسرّع ،
فاقتله قتل العقارب وادمغه دماغ رؤوس الحيات . وإذا كان
من لا يسيء فيك القول ولا يرصدك بالمكروه ، إلا لتعطيه
على الخوف وتمنع عرضك من جهة التقية ، فامنعه جميل
رفدك واحتل في منعه من قبل غيرك ، فإنك إن أعطيته على
هذه الشريطة وأعظمته من هذه الحكومة ، فقد شاركته في
سب نفسك واستدعيت الألسنة البذيئة إلى عرضك وكنت

عونا لهم عليك . وكيف تعاقبه على ذنب لك شطره وأنت فيه * قسيمه ، إلا أن عليك غرمة وله غنمه .
ومن العدل المحض والإنصاف الصحيح أن * تحط عن الحسود نصف عقابه وأن * تقتصر منه على بعض مقداره ، لأن ألم حسد لك قد كفاك مؤونة * شطر غيظك عليه .
وأما الواد فلا تعرض له البتة * ولا تلتفت لفتنه ولو أتى على الحرث والنسل وجنى على الروح والقلب ، ولا تغتر بقوله انتي واد * ولا تحكم له بدعواه اني جد وامق * (٣٩) ، وانظر أنت في حديثه والى مخارج لفظه * والى الحن (٤٠) قوله والى طريقته وطبيعته والى خلقه وخليقته والى تصرفه وتضمنه والى توقفه وتهوره ، وتأمل مقدار جزعه من قلة اكترائك وانظر الى غضبه فيك ولك والى انصرافه عن انصرف عنك وميله الى من مال اليك والى تسلمه من الشر وتعرضه له والى مداومته وكشف قناعه . بل لا يقضي له يجماع ذلك ما كان ذلك في أيام دولتك ومع اقبال من أمرك ، وان طالت الأيام وكثرت الشهود حتى تفتطم الحالات وتستوي فيه الازمان . نعم ثم لا تحكم له بذلك حتى تكون حاله مقصورة على محبتك ومحنوة على نصيحتك بالعلل التي توجب الأفعال والاسباب التي تسخر القلوب للمودات ، كالعلل الثابتة

في الصنيعة والاسباب الموجودة مع مولى العتاقة . فإن عليها خلاف علل مولى الكلالة ، وخلاف علل الصديق الذي لم يزل يرى أنه مثلك وأنه يستوجب منك امتيجابك ، ولا سيما اذا كانت الصنيعة أنت ابتدأتها وأنت أبو عذرتها . فإن أنت لم تحكم له بالغاية مع اجتماع هذه العلل فيه ومع توافيها اليه ، ولم تقض له بأقصى النهاية مع ترادف هذه الاسباب وتكامل هذه الدلائل وتعاون هذه البرهانات ، فكل خبر بيته زور وكل دلالة فاسدة . وقد قال الاول : دلائل الامور أشد تثبيتا من شهادات الرجال . الا أن يكون في الخبر دليل ومع الشهادة برهان ، لأن الدليل لا يكذب ولا ينافى ولا يزيد ولا يبدل ، وشهادة الانسان لا تمتنع من ذلك وليس معها أمان من فساد ، ما كان الإمكان قائما .

وبعد ، متى صار اختيار النخل على الزرع بمقد الإخوان ومتى صار تفضيل الحب وتقريظ الثمر يورث الهجران ، ومتى تميزوا هذا التمييز وتهالكوا هذا التهالك ومتى صار تقديم النحلة ملة وتفضيل السنبلة * نخلة ، ومتى صار الحكم لنخلة نسباً وللكرمة صراً ، ومتى تكون فيها ديانة يستحكم فيها بصيرة وتحدث عنها حمية .
وقد كنا نعجب من حرب البسوس في صراع ناب ومن

حرب بُعِثَ في مخرف تمر ومن حرب غطفان في سبق دابة ،
 فبعثنا أنت بنوع من العجب أبطل كل عجب وآنسنا بكل
 غريب وحسن عندنا كل قبيح وقرب عندنا كل بعيد . فإن
 جهلت - أعزك الله - غضبك فمثلي جهل ما لا علة له ، وإن
 عجزت عن احتمال عقابك فمثلي ضج مما لا يطيق حمله ، ولا
 عار على جازع إلا فيما يمكن في مثله الصبر ولا لوم على جاهل
 فيما لا ينجح في مثله الفكر . وليس هذا أول شرك نصبت
 ولا أول كيد . أرغته ، ولا هي بأول زبينة غطيتها
 وسترتها وحيلة أكنتها وربصتها . وقد كانت التقية والاقتصاد
 أسلم ، بل كان العفو أرحم والتغافل أكرم . ولا خير في
 عقوبة تشمت العدو القادم وبنادي بها العدو الحادث ،
 والأناة أبلغ في الحزم وأبعد من الذم وأحمد مغبة وأبعد من
 خرق العجلة . وقد قال الأول : عليك بالأناة فإنك على إبقاع
 ما أنت موقعه أقدر منك على رد ما قد أوقعته . وقد
 أخطأ من قال :

قد يدرك المتأني بعض حاجته

وقد يكون مع المستعجل الزلل
 بل لو قال : والمتأني يدرك حاجاته أحق والمستعجل
 يفوت حاجاته أخلق ، لكان قد وفى المعنى حقه وأعطى

اللفظ خطئه ، وإن كان القول الأول موزوناً والثاني منشوراً .
 ولولا أنه اشتق المستعجل من العجلة لما قرنه بالمتأني ، وينبغي
 أن يكون الذي غلطه قولهم : رب عجلة تهب . ربنا ،
 فجعل الكلام الذي خرج جواباً عندما بعرض من السبب
 كالكلام الذي خرج ارتجالاً ، وجعله صاحبه مثلاً عاماً .
 فإذا سميت العمل عجلة وربنا فاقض على الريث بكثرة الفوت
 وبقدر ذلك من العجز ، وعلى العجلة بقلة النجاح وبقدر ذلك
 من الخرق والريث والأناة في بلوغ لأمل * وإدراك النعمة كإنتهاز
 الفرصة واهتبال الغيرة ، * والأناة وإن طالت * وإنتهاز الفرصة
 وإن كان في غاية السرعة ، فليس من جنس العجلة . وربت
 كلمة لا توضع إلا على معناها الذي جعلت حفظه وصارت هي
 حقه * والدالة هي * عليه دون غيره ، * كالخزم والعلم والحلم
 والرفق والأناة والمداراة والقصد والعدل والإنتهاز * والاهتبال
 واللباس والأمن والخرق والعجلة والمداهنة والتسرّع والغلو
 والتقصير . * وربت كلمة تدور مع * خلقتها وتقلب مع
 * جارتها وبإرادة * صاحبها وعلى قدر ما تقابل من الحالات
 وتلاقي من الأسباب ، كالجب والبغض والغضب والرضا والعزم
 والإرادة والإقبال والإدبار والجد * والفتور ، لأن هذا الباب
 الأخير يكون في الخير والشر ويكون محموداً ويكون مذموماً .

وصاحب المعجزة - * أعزك الله - صاحب تغرير ومخاطرة :
 * ان ظفر لم يحمده * عالم وان لم يظفر قطعته اللاوم . والريث
 أخو المعجزة ومقرون بالحسرة وعلى مدرجة الائمة . وصاحب
 الأناة * ان ظفر نفع غيره بالفهم ونفع نفسه بشجرة العلم ،
 * وطاب ذكره ودام شكره وحفظ فيه ولده ، وان حرم
 فبسوط عذره ومضروب رأيه ، مع انتفاعه بعلمه وما يجد
 من عز حزمه * ونبل صوابه ، ومع علمه بالذي له عند العقلاء
 وبعذره عند الأولياء والأعداء .

وما عندي لك إلا ما قال الدهقان لأسد بن عبد الله - وهو
 على خراسان - حين مر به وهو يدهق في حبة : ان كنت
 تعطي من ترحم فارحم من تظلم . ان السموات تنفرج لدعوة
 المظلوم ، فاحذر من ليس له ناصر الا الله ، ولا جنة الا الجنة
 بنزول التغيث ، ولا سلاح الا الابتهال الى مولى لا يعجزه شيء .
 يا أسد ان البغي يصرع أهله ، وان الظلم مصرعه وخيم ،
 فلا تغتر بإبطاء العقاب من ناصر متى شاء أن يثبت أغصان ،
 وقد أملى لقوم كي يزدادوا اثماً . وجميع أهل السعادة اما سالم
 من ذنب واما تارك الإصرار . ومن رغب عن التماذي فقد نال
 أحد الغنمين ، ومن خرج من السعادة فلا غاية له الا دار
 * الشقوة . وسواء - جعلت فداك - ظلمت بالبطش والفهم

أو ظلمت بالدحس والفسق ، فشاؤك لبك ، وناظر حزمك ،
 وقف قبل الوثبة ، واحذر زلة العالم . وقد قال صاحبكم : من
 استشار الملاة وقلد طبيعته الاستطراف وجعل الخطرة ذنباً
 والذنب ذنباً ومقدار الطريقة اصراً والصغير كبيراً والقليل
 كثيراً ، عاقب على المتروك الذي لا يُعاب به وبلغ بالبطش الى
 حيث لا بقية معه ، ورأى أن الطبيعة التي لا صلة معها
 والتخليج الذي لا تجمل معه الحزم المحمود ، وأن الاعتراف في
 كل موضع هو الرأي الأصيل . وقال أيضاً : من كانت طبيعته
 مأمونة عليه عند نفسه ، وكان هواه رائده الذي لا يكذبه
 والمتأمر عليه دون عقله ، ولم يتوكل لما يهواه على ما لا
 يهواه ، ولم ينصر تالد الإخوان على الطارف ، ولم ينصف
 الملول المبعّد من المستطرف المقرّب ، ولم يخف أن تجتذبه
 العادة وتتحكم عليه الطبيعة ، فليرسم حجبها ويصورهما
 في كتاب مقروء أو لفظ مسموع ، ثم يعرضها على جهابذة
 المعاني وأطباء أدواء العقول ، على ألا يختار الا من لا يدري
 أي النوعين ينبغي وعلى أيها يحامي ، وأهسا داؤه . فإن لم
 يستعمل ذلك ، بما فضل له من مكسوء العادة ، لم يزل
 متورطاً في الخطأ مغموراً بالذم .
 سمعتك وأنت تريدني وكأنك تريد غيري ، أو كأنك

تشير علي من غير أن تنصني وتقول : اني لأعجب من ترك
دفاتر عمله متفرقة مبثوثة وكراريس درسه غير مجموعة ولا
منظومة ، كيف يعرضها للتخرم وكيف لا يمنعها من التفرق ،
وعلى أن الدفاتر اذا انقطعت حزامته والحمل شداده وتخرمت
ربطه ولم يكن درونه وقاية ولا جنة تفرق ورقه ، وإذا
تفرق ورقه اشتد جمعه وعسر نظمه وامتنع تأليفه ، وربما
ضاع أكثره . والدفاتر أجمع وضم الجلود لها أصون والحزم
لها أصلح . وينبغي للأشكال أن تنظم وللأشياء أن تؤلف ،
فإن التأليف يزيد الأجزاء الحسنة حسناً والاجتماع يحدث
للمساوي في الضعف قوة . فإذا فعلت ذلك صرت متى وجدت
بعضها فقد وجدت كلها ، ومتى رأيت أداها فقد رأيت
أقصاها ، فإن نشطت لقراءة جميعها مضيت فيها . وإذا كانت
منظومة ومعروفة المواضع معلومة ، لم تحتج الى تقليب القباطر
على كثرتها ولا تفتيش الصناديق مع تفاوت مواضعها ، وخفت
عليك مؤونتها وقلبت فكرك فيها ، وصرفت تلك العناية الى
بعض أمرك وأدخرت تلك القوة لنوائب غيرك . وعلى أن
ذلك أدل على حبك للعلم واصطناعك للكتب ، وعلى حسن
السياسة والتقدم في أحكام الصناعة . وقلت : لأمر ما جمعوا
أسباع القرآن وسورة في مصحف ، ولم يدعوا ما فيه

مفرقاً في الصدور ولا مبدداً في الدفاتر ومفرقاً في القباطر ، على
ذلك أجمع المسلمون والسابقون الاولون والائمة الرشيدة والجماعة
الحمودة ، فتوارثه خلف عن سلف ، تابع عن سابق وصغير
عن كبير وحديث عن قديم . ولم أشك في أنها نصيحة حازم
ومشورة واثق أو رأي حضر أو حكمة نبغت أو صدر جاش فلم
يملك أو علم قاض فلم يرد ، استعمله واستعمله وتركه من تركه .
فلما أخذت بقولك وصرت الى مشورتك ، وأكثر حمد الله
على إفادتك من العلم وحظ عنايتك من النقل ، وجمعت
البعض الى البعض والشكل الى الشكل ، وتقدمت في استجادة
الجلود وفي تمييز الصنائع وفي تخير الساعات ، وغرمت المال
وشغلت البال ، وجعلتها مصحفاً مضجفاً وأجملتها صنفاً صنفاً ،
ورأيت أني قد أحكمت شائي وجمعت الى أقطاري ، ورأيت
أن أنظر فيها وأنا مستلق ولا أنظر فيها وأنا منتصب ،
استظهاراً على تعب البدن ، إذ كانت الأسافل مثقلة بالأعالي ،
وإذا كان الانتصاب يسرع في إدخال الوهن على الأصلاب ،
ولأن ذلك أبقى على نور البصر وأصلح لقوة الناظر ، إذا كل
واحد من هذه المصاحف قد اعجز يدي بثقل جرمه وضيق
صدري بحفاء حجمة ، وإذا ثقل أنكا الصدر وأوهن العظم .
وإذا أنا إن نظرت فيها وأنا جالس سدرت عيني وتقوس ظهري

واجتمع الدم في وجهي وأكهرت بصري على غير جهته
وأجريت شعاع ناظري في غير مجراه . وقد علمت - أبقاك
الله - مع خبرتك بمصالح الأمور ومواقع المنافع والمضار ثم
بمصالح العباد والبلاد ، أن من كان على مقطع جبل أو على
شرفات قصر ، فأراد رؤية السماء على بعدها وجد ذلك على
العين سهلاً خفيفاً ، وإن أراد أن يرى الأرض على قربها وجد
ذلك على العين عباً ثقيلاً . فإن بدا لي أن يقابل عيني به العبد
أو تواجهني به الأمة كلفت أخرق الناس كفاً وأقلهم وفقاً
وأكثرهم التفاتاً وأحضرهم نعاساً وأقلهم على حال واحدة ثباتاً
وأجملهم بمقدار الموافقة ولمقادير المقابلة . ومحط السيد ورقمها
وإمالتها ونصبها ، ثم رأيت في تضجرهم وتكرهم وفرارهم
منه ما صير تجشني لثقل وزنه ومقاساتي لجفاء حججه أهون
على يدي وأخف على قلبي فإن تعاطيته عند ذلك بنفسه فشقاء
حاضر وإن ألزمته غيري فغيظ قاتل ، وحتى صارت الحال
فيها داعية إلى ترك درسها والمعاودة لقراءتها ، مع ما كان فيها
من الفائدة الحسنة والمنافع الجامعة ، ومن شحظ الطبيعة
وتمكن حسن العادة . ولو لم يكن في ذلك إلا الشغل عن خوض
الحائضين والبعد عن هو اللامين ، ومن الغيبة للناس . والتمني لما
في أيديهم ، لقد كان نفع ذلك كثيراً وموقعه من الدين والفرض

عظيماً . ومتى ثقل الدرس تناقلت النفس وتقاغست الطبيعة ،
ومتى دام الاستئفال أحدث المجران ، وإذا تطاول الكد رسخ
الزهد ، وفي ترك النظر عمي البصر ، وفي إهمال الطبيعة كلال
حد الطبيعة ، وعلى قدر الحاجات تكبر الخواطر ، بما أنه على
قدر غريزة العقل تصح الجوانح وتسلم ، وعلى قدر كثرة
الحاجة تتحرك الجارحة ويتصرف الناس ، ومع قلة الحركة
وبعد العهد بالتصرف يحدث العمى ويظهر المعجز ويبطئ
الخاطر ، ومع ذهاب البيان يفسد الإيمان ، وفي فساد الإيمان
هلاك الدنيا وفساد الدين . فقد بلغت ما أردت ونلت ما
حارلت ، فحسبك الآن من شج من بأسوك ومن قتل من يقتل
فيك .

جعلت فداك ، إنه ليس يرمي منك . بواحد . وأنا على
عقابك أوحده ، وليس ينجيني منك معقل وعقل ولا مغارة
سبع ، ولا قعر بحر ولا رأس طوبى ، ولا سنى (٤١) ولا
دغل ولا نفق ، ولا مغارة ولا مطمورة . وليس ينجيني
منك إلا مفازة (٤٢) المهلب ، فإن أعرتني قلبه وعلمتني حيلته
وأمكننتني من سكينته ، وإلا فأنا أول من ابتلغته تلك الحية .
ولا والله إن بي قوة على الثعبان فكيف الثنين ، ولا
على الفزة فكيف الأصله . أعفني من حبة المهلب ثم اغتطني أي

قتلة شئت . إن احترمت منك ألفت لنفسي كدأ شديداً
وعماً طويلاً ، وطال اغترابي وافتراق الألفي ، وتعرضت
للعدو وتحرشت بالسباع ، وإن استرسلت إليك لم تر أن
تقتلني إلا شر قتلة . وآلمها ولم تعذبني إلا بأشد النقم وأطولها ،
ولو أردت ذبحني لاخترت الكليل على المرهف والتطويل على
التذفيف ، حتى كأنني علمت عليك شاه مات أو أكلت
سبعة وأطعمتك واحدة .

ولقد تقدمت في المكر واستظهرت علي في الكيد ، حتى
توليت ذلك في صفار كعتي وفيما لا تحفل به من دوام أمري ،
وعلمت أن الدرس لليل وأن إلا للنهار ، وأن
الكتاب لا يقرأ ليلاً إلا والنيان زاهرة والمصابيح مقربة ،
وعلمت أن كل من ضعف بصره وكل نظره ، فإنه أبداً أقرب
مصباحاً وأعظم ظراً ، وأن المحرور المحترق والمرور الملتهب
واليابس المتهافت ، إذا كانت صاحب كتب ودرس فإنه لا
يجد بداً من الصبر على ما يحرقه ويعيبه ، أو التزم للقراءة
فيها والتعرض لها ، فخيرتني بين العمى والجهل ، وما فيها
حظاً مختار .

وقلت إذا سخن بدنه سخن بوله ، وإذا سخن بوله جرح
مئاته وأحرق كليته وطبخ فضول غذائه وجفف ما فضل عن

استمراته ، فأحاله حصاً قاتلاً صخراً جامداً ، وهو دقيق
القضيب ضيق الإحليل ، فإذا حصاه يورثه الأسر ، وفي ذلك
الأسر تلف النفس أو غاية التعذب . وقلت ذفات ابتليت
بطول عمره أقام فينا مشغولاً بنفسه ، وإن ذهب عنا فقد كفانا
مؤونة الحيلة في أمره .

جعلت فداك ، ما هذا الاستقصاء وما هذا البلاء ، وما هذا
التتبع لغوامض المسألة والتعرض لدقائق المكره ، وما هذا
التفغل في كل شيء يُحمل ذكره وما هذا الترقى إلى كل ما
يحيط من قدره ، وما عليك أن تكون كتي كلها من الورق
الصيني ومن الكاغد الحُرّاساني . قل لي لم زينت النسخ في
الجلود ولم حشيتني على الأدم ، وأنت تعلم أن الجلود جافية
الحجم ثقيلة الوزن ، أن أصابها الماء بطلت وإن كان يوم كثر
استرخت ، ولو لم يكن فيها إلا أنها تبغض إلى أربابها نزول
الغيث وتكره إلى مالكيها الحبال كان في ذلك ما كفى ومنع
منها ، وقد علمت أن الأوراق لا يخط في تلك الأيام سطوراً ولا
يقطع فيها جلدأ . وإن نديت فضلاً عن أن تمطر وفضلاً عن
أن تغرق ، استرسلت وامتدت ، ونمت جفت لم تعد إلى حالها
الامع تقبض شديد وتشنج قبيح . وهي أنتن ريحاً وأكثر
ثناً وأجمل للفس : يغش الكوفي بالواسطي والواسطي

بالبصري ، وتعتق لكي يذهب ربحها وينجاب شعرها ، وهي
أكثر عقداً وعجراً وأكثر خباطاً وأسقاطاً ، والصفرة اليها
أسرع وسرعة انسحاق الخط فيها أعم . ولو أراد صاحب
علم أن يحمل منها قدر ما يكفيه في سفره لما كفاه حمل
بغيره ، ولو أراد مثل ذلك من القطني لكفاه ما يحمل مع
زاده . وقلت لي : عليك بها فانها أحمل للحك والتغيير ،
وأبقى على تداور العارية وعلى تقليب الأيدي ، ولرديدها
ثمن ولطرسها مرجوع ، والمعاد منها ينوب عن الجدد . وليس
لدفاتر القطني أثمان في السوق وان كان فيها كل حديث طريف
ولطف مليح وعلم نفيس ، ولو عرضت عليهم عدلها في عدد
الورق جلوداً ، ثم كان فيها كل شعر بارد وكل حديث غث
لكانت أئمن ولكانوا عليها أسرع . وقلت : وعلى الجلود
يعتمد في حساب الدواوين وفي الصكاك والعهود وفي الشروط
وصور العقارات ، وفيها تكون نموذجات النقوش ومنها تكون
خرائط البرد ، ومن أصلح للجرب ولمفاص الجرة وسداد
القارورة . وزعمت أن الأرضة الى الكاغد أسرع ، وأنكرت
أن تكون الفارة الى الجلود أسرع ، بل زعمت أنها الى الكاغد
أسرع وله أفسد ، فكنت سبب المضرة في اتخاذ الجلود
والاستبدال بالكاغد ، وكنت سبب البلية في تحويل الدفاتر

الحفاف في الحمل إلى المصاحف التي تثق الأيدي وتحطم
الصدور وتقوس الظهر وتعمي الأبصار . وقد كانت في
الواجب أن يدع الناس اسم المصحف للشيء الذي جمع
القرآن دون كل مجلد ، وألا يروموا جمع شيء من أبواب
التعلم بين الدفتين فيلحقوا بما جعله السب للقرآن غير ذلك
من العلوم .
دع عنك كل شيء . ما كان عليك أن يكون لي ولد
يحيي ذكرى ويحيي ميراثي ، ولا أخرج من الدنيا بحسرتي ،
ولا يأكله مرء يرصدني وابن عم يحدني ، ولا يرتع فيه
المعتدون في زمان السوء ، ولا تصنع فيه الرجال ويقضي
به الذمام ، فقد رأيت صنيعهم في مال انقود والمناعة
والوارث الضعيف ومن مات بغير وصية .
جعلت فداك ، إن النفوس لا تجود لمولى الكلالة بما تجود
به لأولاد الأصلاب وما من تلك الأصلاب ، لأن الرحم
الماتة والقراية الملتصقة واللحمة الملتحمة وإن أملت التركة
ونازعت إلى الورث فمعا ما يأطرها ويثنيها ويحزنها
ويبيكها ويحرك دماها ويستغزر دمعها . وقد يشفع الولد
إلى أبيه . حال أبيته كانت من أبيه وابن العم الذي ليس بالبعيد
فيحتك من حسده وليس بالقريب المحنو على رحمه . وسببه

الجاذب له إلى تمنّي مماتي أمتن من سببه إلى تمنّي بقائي ، فهو إلى الحال المرجبة للقسوة والغلظة أقرب منه إلى الحال الموجبة للرفقة والعطف ، وليس ينصرك إذا نصرك ولا يحامي عليك لقربته منك ، ولكن لعله بأنه متى خذلك حلّ به ضعفك واجترأ بعيد ضعفك عليه عدوه ، فهو يريد بنصره من لا يجب عليه شكره ، ويقوّي ضعف غيره بدفع الضعف عن نفسه .

جعلت فداك ، ما كان عليك من بُني صغير يكون لي ، ولا سيّما ولست عندك ممّن يدرك كسبه أو تبلغ نصرته أو يُعائن برّه أو يؤمّل إمتاعه . وما كان عليك مع كثير سني وضعف ركني أن يكون لي ربحانة أشمها وثمرة أضها ، وأن أجد إلى الأمان به سبباً وإلى التلهّي سلماً ، وأن تكثّر لي من جنس سرور الحالم وبقدر ما يُمتنع به راجي السراب اللامع ، حتى حببت قصر عمري إلى وليتي وشوقته إلى ابن عمي ، وحتى زدت فيما عنده ، مع كثرة ما عنده وحتى صيّرتني حبه لموتي إلى حب موته وتأميل مالي إلى تأميل فقره ، وحتى شغلتنني كان يشغل عدوّتي عنتي . وسواء أعبت عليّ أن لا يكون لي ولد قبل أن يكون ، أو عبت عليّ أن لا يكون بعد أن كان - فإنما يعذب الله على النية والقصد وعلى التوخي

والعمد - كما أنته سواء أن تحتال في لا يكون لي مال قبل أن أملكه أو احتلت في ألا يكون بعد أن ملكته . وكنت لا أدري ما كان وجه حبك لإعنائني وللتشديد بذكر ترائي والتنويه باسمي ، ولا لم زهدتني في طلب الولد ورغبتي في سيرة الرهبان ، فإذا أنت لم ترفع ذكرني في الأغنياء إلا لتعرض ذنبي للفقراء ، ولم تكثر مني إلا لتقوّي العلة في قتلي ، فيألفها مكيدة ما أبعد غورها وبها لها حفرة ما أبعد قعرها ، لقد جمع هذا التدبير لطافة الشخص ودقة المسلك وبعد الغاية .

والله لو دبرها الإسكندر على دارا بن دارا ، واستخرجها المهلب على سفيان بن الأبرد ، وفتحت على هرثة في مكيدة خازم بن خزيمه ، ولو دبرها لقيم بن لقمان على لقمان بن عاد ، ولو أذاعها قيس بن زهير على حصن بن حذيفة ، ولو توجهت لكهان بني أسد على دهاة قريش ، لقد كان ذلك من تدبيرهم نادراً بديعاً ولكان في مكابدهم شاذاً غريباً ، وإنها لترفع عن قصير في كيد الزبّاء وعن جذيمة في مشاورة قصير ، وما إخالها إلا وقدق على ابن العاص وتقمض على ابن هند ويكل عنها أخو ثقيف ويستسلم لها ابن سمية . هذا والله التدبير ، لا يخاريق العراف وتزاوير الكاهن وتهاول

الحاوي ، ولا ما ينتجها صاحب الزرق (٤٣) (?) ، بل
تصل فيها رقى الهند وتقربها سحرة بابل (٤٤) .

قلو كنت - إذ أردت ما أردت وحاولت ما حاولت -
رفعت قبل كل شيء المؤانسة ، ثم أبيت المؤاكلة ، ثم قطعت
البر ، ثم أذنت مع العامة ، ثم أعملت الحرمان ، ثم صرحت
بالجفوة ، ثم أمرت بالحجاب ، ثم صرمت الجبل ، ثم عادت
واقصدت ، ثم من بعد ذلك كله أسرفت واعتديت ،
لكنت واحداً ممن يصبر أو يجزع . فلملتي كنت أعيش
بالرفق وأتبلغ بحشاشة النفس وأعلل نفسي بالطمع الكاذب .
ولكن فجاءات الحوادث وبغات البلاء ، لا يقوم لها الحجر
القاسي ولا الجبل الراسي ، فلم تدع غاية في صرف ما بين
طبقات التعذيب إلا بلغتها ، فقد ميت الآن فمع من تعيش ،
بل قد قتلتي فمن الآن تعاشر ! كما قال ديوست المغني لكسرى
حين أمر بقتله لقتله تلميذه بلهيد : قتل أنا بلهيد وتقتلني ،
فمن يطربك ؟ قال : خلثوا سبله فإن الذي بقي من عمره هو
الذي انطقه بهذه الحجة . ولكني أقول : قد قتلتي فمع من
تعيش ؟ أمع الشطرنجيين ؟ فقد قال جالينوس : إياك
والاستمتاع بشيء لا نعم نفعه .

إن الكلام إنما صار أفضل من الصمت لأن نفع الصمت لا

يكاد يعدو الصمت ونفع الكلام يعد القائل والسامع والغائب
والشاهد والراهن والغابر . قالوا : وما يدل من فضل الكلام
على الصمت أنك بالكلام تنبهر عن الصمت وفضله ولا تنبهر
بالصمت عن فضل الكلام .. ولو كان الصمت أفضل لكانت
الرسالة صمتاً وكان عدم القرآن أفضل من القرآن ، وقد فرق
بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم وفصل وميز وحصل
حيث قال : رحيم الله امرءاً قال خيراً ففهم أو سكت فلم
فجعل حظ السكوت السلامة وحسبها ، وجعل حظ القول الجمع
بين الغنيمة والسلامة ، وقد يدل من لا يفهم ولا يفهم إلا من
سليم (٤٥) .

فأما الدواب فمن يضع المركب الكريم إلى الصامت
الكريم ، ومن يعدل امتاع بهيمة بامتاع أديب ؟ قالت ابنة
النعمان . لم نرفيا جربنا من جميع الأصناف أبلغ في خير
وشر من صاحب . ولما عزم بن زياد على الحفنة بعد أن كانت
تفحشها قال له حارثة بن بدر : ما أجدر أولى بتولتي ذلك من
الطبيب . قال عبيد الله : كلا ، فأين صاحب !

والله لو نتجت في كل عام ألف شبيه (٤٦) وقهرت في
كل ليلة أربعة آلاف ربيب وصار لك كل نهر المركب بدلاً
من بعض بابيك ، وأكلت رأسك الجنيد بن حاق الأشيم

واحتلت بين الغر من افراط الشبق ، لما كان ينبغي لك أن تعاملنا بهذه المعاملة ولا كان ينبغي أن تقتلنا هذه القتل . ولو اقتصرت من العقوبة على شيء دون شيء لكان أعدل ولو عفوت البتة لكان أمثل . ان الاعتزام على قليل العقاب يدعو الى كثيره ، ومتبدىء العقاب بعرض لجأج ، وليس يعاقب الا غضبان ، والغضب يغلب العزم على قدر ما يمكن ويحيثر اللب بقدر ما سيطر ، والغضب يصور لصاحبه مثل ما يصور السكر لأهله ، والغضبان يشغل الغضب ويغلي به الغيظ وتستفرغه الحركة ويمتلئ بدنه رعدة وتترايل أخلاطه وتتحل عقده ولا يعتريه من الحواطر الا ما يزيده في دائه ولا يسمع من جليسه الا ما يكون مادة لفساده ، وعلى أنه ربما استفرغ حتى لا يسمع واحترق حتى لا يفهم . ولولا أن الشيطان يريد ألا يخلو من عمله ولا يقصر في عاداته ، لما وسوس الى الغضبان ولا زين له ولما أغراه ولا فتح عليه ، اذ كان قد كفاه وبلغ أقصى مناه . وليس يصارع الغضب أيام شبابه وغرب نابه شيء الا صرعه ولا ينازعه قبل انتهائه وادباره شيء الا قهره ، وانما يحتمل له قبل ميجه ويتوثق منه قبل حركته ويتقدم في جسم أسبابه وفي قطع علله . فأما اذا تمكن واستفحل وأذكى ناره واشتعل ، ثم لاقى ذلك من صاحبه قدرة ومن أعوانه سمعا

وطاعة ، فلو سعطته بالتوراة ووجرته بالانجيل ولدوته بالزبور وأفرغت على رأسه القرآن اقراغيا وأتيته بأدم عليه السلام شفيعا ، لما قصر دون أقصى قوته ولتشتى أن يعار أضعاف قدرته . وقد جاء في الأثر : ان أقرب ما يكون العبد من غضب الله اذا غضب . قال قتادة : ليس يسكن الغضب الا ذكر غضب الرحمن عز وجل . وقال عمرو بن عبيد : ذكر غضب الرب يمنع من الغضب . الا أن يريد الذكر باللسان ، ويسمى المتوجد غضبان والذكور حقودا .

فلا تقف - حفظك الله - بعد مضيئك في عقابي التماس العفو عني ، ولا تقصر عن افراطك من طريق الرحمة لي . ولكن قف وقفة من يتهم الغضب على عقله والشرطان على دينه ، ويعلم أن للعقل خصوما وللكرم أعداء ، وأن من النصف أن تنتصف لعقلك من خصمه وتنتصف لكرمك من عدوه ، وتمسك امساك من لا يبرئ نفسه من الهوى ولا يبرئ الهوى من الخطأ ، ولا تنكر لنفسك أن تزل ولعقلك أن يهفو ، فقد زل آدم عليه السلام وهفا وعصى ربه وغوى وغره عدوه وخدعه خصمه وعيب باختلال عزمه وسكون قلبه الى خلاف ثقته ، هذا وقد خلقه الله بيده وأسكنه في دار أمنه وأوجد له ملائكته ورفع فوق العالمين

حرجته وعلته جميع الأسماء بجميع المعاني . ولا يجوز أن
يحمل الاسم ويدع المعنى ، ويعلمه الدلالة ولا يضع له المدلول
عليه . والاسم بيلا معنى لغو كالظرف الخالي ، والاسم في
معنى الأبدان والمعاني في معنى الأرواح ، اللفظ للمعنى بدك
والمعنى للفظ روح . ولو أعطاه الأسماء بلا معان مكات كمن
وهب شيئا جامدا لا حركة له شيئا لا حيس فيه شيئا لا
منفعة عنده . ولا يكون اللفظ اسما الا وهو مضمّن بمعنى ،
وقد يكون المعنى ولا اسم له ولا يكون اسم الا وله معنى .
في قوله جل ذكره : وعلم آدم الأسماء كلها ، اخبار أنه
قد علمه المعاني كلها . ولنا نغني معاني تراكيب الألوان والطعوم
والأرايح وتضاعيف الأعداد التي لا تنتهي ولا تتناهي . وليس
لما فضل عن مقدار المصلحة ونهاية الوهم اسم ، الا أن تدخله
في باب العلم فتقول شيء . ومعنى الأسماء التي تدور بين الناس
انما وضعت علامات لخصائص الحالات لا لنتائج التركيبات .
وكذلك خاص الخاص لا اسم له ، الا أن نجعل الإشارة
الموصولة باللفظ اسما . وانما تقع الأسماء على العلوم المقصورة ،
ولعمري انها لتحيط بها وتشتمل عليها . فأما العلوم المبسطة
فانما تبلغ الأسماء مبالغ الحاجات ثم تنتهي . فإذا زعمت أن
الله تبارك وتعالى علم آدم الأسماء كلها بمعانيها فانما يعني نهاية

المصلحة لا غير ذلك .

هذا وآدم هو الشجرة وأنت ثمرة ، وهو سماوي وأنت
أرضي ، وهو الأصل وأنت الفرع ، والأصل أحق بالقوة
والفرع أولى بالضعف . قلت أسالك أن تمسك الاريثا
تمسك اليك نفسك ويرتد اليك ذمك ، وحق توازن بين
شفاء الغيظ والانتفاع بثواب العفو ، وتزى الحليم وما يجلب
من السلامة وطيب الأحداث ، وتزى تصرم الغرض وما
يفضي لأهله من فضل القوة . على أن العقل اذا تخلص من
سكر الغضب أصابه ما يصيب الخمر اذا خرج من سكر
شرابه والمنهزم اذا عاد الى أهله والمبرسم اذا أفاق من برسامه .
وما أشك أن العقل حين يطلق من اساره كالمقيّد حين يفك
من قيوده ، فإنه يمشي كالزيف ويحجل كالغراب . فإذا
وجب عليك أن تحذر على عقلك مخامرة داء الغضب بعد
تخلّصه وأن تتعمده بالعلاج بعد مباينته له وتخلّصه من يده ،
فما ظنك به وهو أسير في ملكه وصريع تحت كلكه ،
وقد غطه في بحره وغمره بفضله قوته .

وقد زعموا أن الحسن حضر أميرا قد أفرط في عقوبة
بعض المذنبين ، فكلّمه فلم يحفل بكلامه وخوفه فلم يتعظ
بزجره ، فقال انك انما تضرب نفسك ، فان شئت الآن

فأقول "وان شئت فأكثر . ومعاذ الله أن أقول لك كما قال
الحسن لذلك الظالم المعتدي والمصنم القاسي . ولكني أقول :
اعلم أنك تضرب من قد جعلك من قتل في حل . وان كان
القتل يحل باحلال المقتول ويسقط عنه عقابه بهبة المظلوم ،
ولو أمكن في الدين تواهب قصاص الآخرة في الدنيا ، وان
كان ذلك مما تجود به النفس يوم الحاجة الى الثواب والى دفع
العقاب ، وكان الوقاء مضمونا ، لكنت أول من أسمع
بذلك نفسه وانشرح به صدره .

جعلت فداك ، اعلم أني قد أحصيت جميع أسباب
التعادي وحصلت جميع علل التضامن ، الا علة عداوة الشيطان
للإنسان ، فاني لا أعرف الا مجازها في الجملة ولا أحق خاصتها
على التحصيل ، وعلى كل حال فقد عرفت من طريق الجملة
وان جهلتها من طريق التفصيل . فأما هذا التجني فلم أعرفه
في خاص ولا عام .

فمن أسباب العداوات تنافس الجيران والقرابات وتحاسد
الأشكال في الصناعات ، ومن أمثن أسبابهم الى الشر وأسرعها
الى المروءة والعقل وأقدها في العرض وأحطها على الدين ،
التشاح على الموارث والتنازع في تخوم الأرضين ، فان اتفق
أن يكون بين المتشاكين في القرابة كان السبب أقوى والداء

أدوى ، وعلى حساب ذلك ان مجت هذه الخصومة مع الجوار
والقرابة واستواء الخط في الصفة . ولذلك كتب عمر -
رضي الله عنه - الى قضائه أن يردوا القرابات عن حر القضاء ،
فان ذلك يورث التضامن .

ولم أعجب من دوام ظلمك وثباتك على غضبك وغلظ
قلبك ، ودورنا بالمكر متجاوزة ومنازلنا بمدينة السلام
متقابلة ، ونحن ننظر في علم واحد ونرجع في النحلة الى
مذهب واحد ، ولكن اشتد تعجبي منك اليوم وأنا بفرغانة
وأنت بالأندلس ، وأنا صاحب كلام وأنت صاحب تناسخ ،
وصناعتك جودة الخط وصناعتي جودة الحجر ، وأنت كاتب
وأنا أمي ، وأنت خراجي وأنا عشري ، وأنت زرعني وأنا
نخلي . فلو كنت اذ كنت من بكر كنت من قم كان لك
الى العداوة سبب والى المنافسة سلم .

أنت أبقاك الله شاعر وأنا راوية ، وأنت طويل وأنا قصير ،
وأنت أصلع وأنا أزع ، وأنت صاحب براذين وأنا صاحب حير ،
وأنت ركين وأنا عجول ، وأنت تدبر لنفسك وتقيم أود غيرك
وتتسع لجميع الرعية وتبلغ بتدبيرك أقصى الأمة ، وأنا
أعجز عن تدبير نفسي وعن تدبير أمي وعبيدي ، وأنت
منعم وأنا شاكر ، وأنت ملك وأنا سوقة ، وأنت

مصطنع وأنا صنيعه وأنت تفعل وأنا أصف ، وأنت مقدم
وأنا تابع ، وأنت اذا نازعت الرجال ونامضت الأكفاء ، لم
تقل بعد فراغك وانقطاع كلامك لو كنت قلت كذا كانت
أجود ولو تركت قول كذا لكان أحسن ، أمضيت الأمور
على حقائقها وسلمت إليها أقساطها على مقادير حقوقها ، فلم
تندم بعد قول ولم تأسف بعد سكوت ، وأنا إن حكمت
ندمت وأنت جازيت أبدعت ورأي كل دبري . وأنت
تعد في الشطرنج زبرب وأنا في الشطرنج لا أحد .

وما أعرف هنا اجتماعاً على مشاكلة ، إلا في الايثار بخبز
الحشكار على الحواري والباقي على الجوزينج ، وأنا جميعاً
ندعي الهندسة . فقد بلغ الآن من جرمي في مساواتك في
خبز الحشكار وإيثاري الباقي والمعرفة بتقدير المدن وإجراء
الثقي ، أن أنفى من جميع الأرض وآت تجعل في دمي الجمائل .
فاني قد هجرت الخبز البتة إلى مواصلة التمر ونزلت الوبر
بدلاً من المدر .

دعنا الآن فانك فارغ . إن الله يعلم وكفى به علماً
وكفى به شهيداً وكفى به حفيظاً ووكيلاً وكفى بحجراً من
يعلمه ما لا يعلم حجراً وتعرضاً وكفى بحاله عند الله بعداً
ومقتاً . لقد أردت أن أفديك بنفسي في بعض كتي ، وكنت

عند نفسي في عداد الموتى وفي حيز الملك ، فرأيت أن من
الحياة لك ومن اللوم في معاملتك ، أن أفديك بنفسي ميتة
وأن أريك أني قد جدت لك بأنفس علق والعلق معدوم .
ليس أن من قد فداك فقد جعل فداك ، ولكنها نهاية من
نهايات التعظيم ودليل من دلائل الاجتهاد ، ومن أعلن الاجتهاد
لك واستسر خلاف ذلك ، فقد نافق وخان وغش وألم ،
واخلق بمن أخل بهذه الآلة يرعى حقاً ولا يرجع إلى صحة ولا
إلى حقيقة .

ثم أنت لا يشفيك مني السم المجهز ولا السم الساري فإنه
أبعد غاية في التطويل وأبلغ في التعذيب ، لا ولا لعاب الأفاعي
ودامية الدواهي ، فإنه يعجز الرقي ويفوت ذرع الأطباء ، لا
ولا نار الدنيا ، بل لا يشفيك من نار الآخرة إلا الجحيم ، ولا
يشفيك من الجحيم إلا أن أرمى في سوائه وفي أصطمة ناره
وفي معظم حريقه وفي موضع الصميم من لحيه ، بل لا تكتفي
بذلك دون الدرك الأسفل ، بل لا يرضيك شيء سوى الهاوية ،
بل لا ترضى إلا بعذاب آل فرعون أشد العذاب ، بل لا
يرضيك إلا عذاب ابليس الذي زين اختر للعباد وبثه في البلاد ،
والذي خطأ الرب وعانده ورد قوله وغير عليه تدبيره ، ولم
زد إلا شكاً وبجاجة وتمادياً واصراراً ، ثم لم يرض من

الجِد في مخالفة أمره وخلع العذار في شدة الخلاف عليه ، الا
بأن يحلف على شدة اجتهاده في ذلك بعزته ، فجعل العزة
المانعة من اسخاطه سبيلا الى اسخاطه ، والقسم الحاجز دون
اغضابه وسيلة الى اغضابه ، حيث قال : « فبِعِزَّتِكَ لَا غَوِيَّتَهُمْ
أَجْمَعِينَ . »

فعلبك - عافاك الله - بابليس إن كنت لله تغضب ، ار
عليك بالأكفاء إن كنت لنفسك تتشفى . لا ولكنك استغمرتني
واستضعفتني ، وجعلتني فرّوج الرقا ، وتريد أن تتعلم في
معاينة الأعداء . فان كنت الى هذا تذهب فجعفر بن معروف
أضعف منّي وعبد الله بن عيسى أسوأ خيراً منّي .
سبحان الله يسلم عليك حيدر الأفشين ويهلك عليك عمرو
الجاحظ ، ويسود بك أبعد البعداء ويشقى بك أقرب القرباء ،
وتتغافل عن مثل الجبال التماساً للتسليم وحباً للسلامة ،
وتتغافل الى المحقرات طلباً للتعرض وحباً للشر . ومتى
قدرت على عدوك فلم تجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه ،
ومتى لم تتغافل عنه تكزماً أو تدعاً إحقاراً ، ومتى اكرهت
لكبير أو ضاق صدرك عن شيء عظيم ، فماذا بين يديك
فكلني بخلّ وخردل ، فوالله إنك لتأكله غثاً غير مري وخبثاً
غير شهى .

لا والله لكأنك وقعت على مطبورة وظفرت برأس
خاقان . كنت أظن أن الرشاقة والحلم لا يجتمعان وأن
لطرف الانسان وإصالة الرأي لا يقترنان ، وأن النزق
الحقة مقرونان بخفة البدن وأن الركاة والأناة مجموعان لصاحب
لهمن . حتى رأيته فاعتقدت بك خلاف ذلك الرأي
واستبدلت فيك ضد ذلك الظن ، فتركتني حتى إذا نازعت
لرجال وتعرضت للشجى وشغلت نفسي بطلب الخصام
وانقطعت الى أصحاب القدود وجعلت عداوتي في تقديم القضاء ،
وطال لساني بك وأظهرت الاستبصار في فضلك ، وجعلت
مزاج أخلاطك هو الحجة واعتدالك هو النهاية وطبيعتك هي
المسكنة ، وزعمت أن منظره يغني عن خبرك وأن أولك
يخلي عن آخرك ، شددت علي شدة المهر الأرنب وتسرعت
الى تسرع الفرّ النزق وألححت علي إلحاح الحق . كأنك لم
تحفل بما يشيع لك من اسم المتسرع وبما تضاف إليه من سخف
لشروع ، بعد أن تكذب قولي وتفسد خبري . وقد تقدّمت
لتجربة في أن الحديد لا يكون حقوداً وأن المصطنع لا يكون
للصناعة حاسداً ، فقصدت على رأسي إلى القياس المتحن
فأفسدته وإلى الطباع المتمدلة فنقضتها وإلى القضايا الصحيحة
برددتها .

لجميعه
قال:
فات
الله لن
روحاً
فني من
يحتمل
أظنك
ظنك به
ريب في
وقرابة
م مولعة
شاكلة
وأبعد من
وجوهر
لى غربة وفي
إليه بشك
تضحكك

وقد قالوا بأجمعهم : حالان لا يقبلان الحسد ولا يخلوان
من الرشد ، حال الصنيعة لمصطنعه وحال المولى لمعتقه .
فكيف إذا كان الصنيعة صديقاً وكان للخاصة محتلاً وإني
صارت - أبقاك الله - أجزاء النفس وأعضاء الجسد - مع كثرة
عددها واختلاف أخلاطها وتباعد أماكنها - نفساً واحدة
وجسداً واحداً ، لاستواء الخواطر ولا يقاها على الإرادة .
فأنت وصديقك الموافق وخليك ذو الشكل المطابق ، مستويان
في المحاب متفقان في الهوى متساويان في الشهوة ، وتعاونكما
كتعاون جوارح أحدهما وتساكما كتسالم المتفق من طبائعكما ،
فاذا بان منك صديقك فقد بان منك شريك ، وإذا اعتل
خليك فقد اعتل نصفك بل النفوس المضمنة كالمعاني المضمنة ،
فذهاب بعضها هو ذهاب جميعها ، فبقي هو موت صديقي
وحياي هي حياة صديقي ، فلا تبعدني من قلبك بعد بدني من
بدنك ، فقد يقرب البغيض وينأى الحبيب . ولعل بعض طبائعك
الخالط لروحك أن يكون أعدى من كل عدو وأقطع من كل
سيف وأخوف عليك من الأسد الضاري ومن السم الساري .
ثم اعلم أن الموثق بمودته قليل . وقد صار اليوم المعتد
عليه في صحة العقدة وفي كرم الغيب والعشرة عتقاء مغرب .
ولا أعلم الكبريت الأحمر إلا أوجد منه ، وإني لأظن القناعة

كثير منه ، وما أكثر من جعل انقطاع سببه وضعف طمعه
انقطاع سببه قناعة . وقيل ليحيى بن خالد : أي شيء أقل ؟ قال :
باعة ذي الهمة البعيدة بالعيش الدون ، وصديق قليل الآفات
كثير الإمتاع شكور النفس يصيب . واضع المرح . لا والله لن
أعرف على ظهرها موضعاً للسرو ولا مكاناً للشكوى ولا روحاً
نفس بها ولا نفساً تسكن إليها . ولو أردت أن تعرفني من
بين العالمين رجلاً لما قدرت على أحد يحتمل الغنى ، ومحتمل
الفقر قليل ومحتمل الغنى عديم .
إن الخير - أبقاك الله - في أيام كثرته كان قليلاً فما ظنك
في أيام قلته ، وإن الشر في أيام قلته كان كثيراً فما ظنك به
في أيام كثرته . وأنت غريب في المصطنعين وأنا غريب في
الصنائع ، والغريب للغريب نسيب ، ونسب المشاكلة وقراءة
الطبيعة الموافقة أقرب من نسب الرحيم ، لأن الأرحام مولعة
بالتحاسد هجة بالتقاطع ، وإن التحاب على طبع المشاكلة
والتلاقي على وفاق من الطبيعة ، أبعد من التفاسد وأبعد من
التعادي ، وسبب التعادي عرض في طبائع الغرباء وجوهر
في طبائع الأقرباء .
واعلم أنك لا تزال في وحشة إلى وحشة إلى غربة إلى غربة وفي
تكثير العيش وتسخط الحال ، حتى تجد من تشكو إليه بشك
وتفضي إليه بذات نفسك . ومتى رأيت عجباً لم تضحكك

رؤيتك له بقدر ما يضحك إخبارك إياه . فمن أغلب عليك
من كانت هذه حاله منك وموقعه من نفسك . ولو أن شيتي
التي بها استعطفتك وكبرة سني التي بها استرحمتك ، اللتان لم
يحدثا علي إلا وأنا في ذراك ولم يحلا بي إلا وأنا في ظلك ، لكان
في شفاعة الكبرة واسترحام الضعف والوهنة ما يردعك عنني
أشد الردع ويؤثر في طباعك أبين الأثر ، فكيف وقد أكرمتني
جديدا ثم تريد أن تهينني خلقا ، وقويت عظمي أغلظ ما
كان ثم تريد أن توهنه أرق ما كان . وهيل هيرمت إلا في
طاعتك وهل أخلقني إلا ميعانة خدمتك .

قال علي بن أبي طالب رضوان الله عليه : رأي الشيخ
الضعيف أحب إلينا من جلد الشاب القوي . وأنا أقول كما
قال أخو ثقيف : مودة الأخ التالد وإن أخلق خيرا من مودة
الطارف وإن ظهرت بشاشته وراعتك جديته . وقال عبد الملك
بن مروان : رأي الشيخ أحب إلينا من مشهد الغلام . وقال
بعضهم : ليس بغائب من شهد رأيه وليس بفان من بقي أثره ،
وما كمل العقل ولا وفّر التجربة شيء . كنقصان البدن
وكأخذ الأيام من قوى الأعضاء . وقد آخر : ما قبّح
الرجال شيء كالو كال ، ولا أفسد الكريم شيء كحب
الاستطراف . وخير الناس من أتبع الغضب مواقع الذنوب ،

وأتبع العقاب مواقع الغضب ، ولم يتبع الغضب مواقع الهوى .
ولقد منححك جلد شباني كسلا وغرب نشاطي مقبلا ،
وكان لك مهناء وثمره قواه ، واحتملت دونك غرامه وعدمه
وكان لك غنمه وعلي غرمه ، وأعطيتك عند إدبار بدني قوة
رأي وعند تكامل معرفتي نتيجة تجروبي ، واحتملت دونك
ومن الكبر وأسقام الهرم . وخير شركائك من أعطاك ما
صفا وأخذ لنفسه ما كدر ، وأفضل خلطانك من كفاك
مؤنته وأحضرك معونته ، وكان كلاله عليه ونشاطه لك .
وأكرم دُخلانك وأشكر مؤمليك من لا يظن أنك تسمي
جزيل ما تحتل في بذلك ومؤاسالك مؤونة ولا تتابع
إحسانك إليه نعمة ، بل يرى أن نعمة الشاكر فوق نعمة
الواهب ونعمة الواد الخالص فوق نعمة الجواد المغني ،
وأنه لا يبلغ في إعطاء المجهود من نفسه في خلع جميع ماله إلى
مؤمليه والمتجربين به ، حسن نية الشاكر الوامق وحق
نمي الواد العارف . ولو اقتضيت جميع حقوقك علي وأنكرت
جميع حقوقك عليك ، أو جعلت حقي عليك حقا لك ، ثم
زعمت أن حقلك لا يؤدي إلى شكره وأن حقي لا يلزم حقه
وأن إحساني إساءة وأن الصغير من ذنوبي كبير وأن اللثم مني
إصرار وأن خطائي عمد وأن عمدي كله كفر وأن كفري

موجب الطمع ويمنع من النزوع ، لما كان عندك ، وما اتسع قولي
 لأكثر من هذا العقاب ولا أشد من هذا الغضب . وما ينبغي
 أن يكون هذا المقدار من النقم إلا لبارئ النسم ، في دار
 البقاء لا في دار الفناء ، والذي يجوز بني العباد بما هو تعزير أو
 حد أو قود أو قصاص أو حبس أو تغريب أو اغراق أو
 اسقاط عدالة أو إلزام اسم العداوة أو عقاب يجمع الألم والتقويم
 والتنكيل ، فيكون مفضض الألم أجراً له ومعدلاً أسبابه .
 وربما قصر الايقاع على السخط وجاوز حد الغضب ، وربما
 كان مقصوراً على مقدارهما ومحبوساً على نهاية حالهما . وليس
 كل عقاب نتيجة سخط ، وقد لا يسمى ذلك الموضع
 والمعاقب واجداً كما يسمى ساخطاً ، ولا يسمى عاتباً كما يسمى
 غضباناً ، فيخرج كما ترى من أن يسمى سخطاً أو موجده
 وغضباً ، كما خرج عقاب آدم عليه السلام من هاتين الصفتين
 ومن جميع القسمين وعلى أنه كان اخراجاً من دار الخلد
 والكرامة الى دار الابتلاء والمحنة . مع ما في ذلك من اعزاء
 الجلد والتسمية بالظلم ، مع الوصف له بضعف العزم والاعتزاز
 بيمين الخصم .
 والمعجب أنك تضجر من طول مسألتنا لعفوك مع حاجتنا
 الى عاجل عفوك ، ولا تضجر بطول تشاغلِكَ بظلم صديقك مع

استغنائك عن ظلم صديقك . فلو كنت انما تفعل ذلك لأنك
 تلذ ضرب الشياط ورخص العظام ، فجنب دندن أحمل والوسط
 في ظهر قاسم أحسن وأبدانها تحت لسياط أثبت وانأرواحها
 أبقي وهي بأرواح الكلاب أشبه وان طبائع الضباب أقرب
 وأرحامهم بالحير أمس ومن يشير فيهم بذلك أكثر والأجر في
 ضرهم أعظم . فاستدم اللذة بطريق اللذة وضع الأمور في
 مواضعها يطبل سرورك بها .
 إن عتاق الخيل وأحرار الطير أدق حساً وأشد اكتراناً ،
 والكواذن الغلاظ والمهامر الثقال أكل حساً وأقل اكتراناً .
 وليس الصبر بالصمت والكوت ولا بقلة الصباح والضمور ،
 وقد يصيح تحت السوط من لا يُقر على صاحبه ولا يدل على
 عورة نفسه . والكلب المضروب يجمع الصباح والهرب والفرس
 العتيق يعدو ولا يصيح ، والحافر كله كظوم ضاغن والخلب
 كله ضجور صياح ، والضجر في الحف عام والبخاقي (٤٨)
 أضجر ، فمن الظلف عام وهو في الضأن أخطى . وكل
 مضروب هارب صياح ، ومنها ما يجمع الخصال كالكلب
 والبعير . والهرب من المكروه محمود والمقام عليه مذموم ،
 كالذي يعتري عين السقم ، وتجده في الفرس الكريم ، من قلة
 الاكتران وشدته . وصبر البدن غير صبر النفس . وليس بقاء

الأرواح المنعقدة تحت الضرب الشديد من اعتزام النفس ولا يدل على الكرم . وفي المثل : ما رُوح فلان إلا روح كلب . ويقول العرب : الضب أطول شيء ذمء ، والكلب لنيم والضب غير كريم . والبازي أكرم من الصقر وأشد وأكثراً كتماناً وأجل جبالاً وأعفى صيداً وأنبيل ثبلاً ، إن قبض عليه قتله وإن لم يُنح كندرتة (٤٩) عن قريبه أو هو نفسه . ثم يبلغ من دقة طمع البازي وعتقه أنه ينقطع برودة الباز يار له إلى مسقطه من يده ، والصقر يتعلق بساقه من رجل حمل بذرع فيضطرب منكساً إلى الصبح ثم يحده وكأنه لم يزل على كندرتة وعلى مسقطه الذي يؤتى له . فليس بدني من أبدان الاحتمال فأمتعك بطول ثباته لك ، ولا أثبت لك ثبات العير الكلبل الحس ولا أجعل الصباح دليلاً على الإقرار ، فيكون ذلك أحد ما تتمتع به وتُدرك به حاجة نفسك . وقد دلتك على ناس يجمعون لك الخصال التي فيها دوام لذتك وتمام شهوتك . فإن زعمت أن الذي يُثبت روح دندن في بدنه وروح القاسم في جسمه ، سرورهما بما قد احتجنا (٥٠) من كنوز الخلافة وأموال الرعية ، وليس ذلك من رسوخ أرواحها في أبدانها ومن شدة الاحتجاج وقوة الاكتناز ، ففترق بينهما وبين تلك الأموال التي تمسك

أرواحها بالجيل اللطيفة والتدبير النافذ ، وبأن تمضي فيها حكم الكتاب والسنة . فإنه سيجل عقدة أرواحها عقداً عقداً ، فيعظم أجرك ويطيب ذكرك وتطيع الخليفة وتحتجب به الأمة ، فتكون قد أحسنت في صرف الضرب إلى أهله ، وأرحت منه غير أهله . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

تمت الرسالة بعون الله ومته وتوفيقه والله الموفق بالصواب برحمته . والحمد لله أولاً وآخراً وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامه .

فلسفة فصل ما بين العداوة والحسد

تأليف

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (*)

بسم الله الرحمن الرحيم

أُصْحَبَ اللهُ مُدَّتِكَ السَّعَادَةَ وَالسَّلَامَةَ وَقَرْنَهَا بِالْعَافِيَةِ
وَالسَّرُورِ وَوَصَلَهَا بِالنِّعْمَةِ الَّتِي لَا تَزُولُ وَالْكَرَامَةِ الَّتِي لَا تَحُولُ .
هَذَا كِتَابٌ - أَطَالَ اللهُ بِقَاءِكَ - نَبِيلٌ بَارِعٌ ، فَصِّلَ فِيهِ
بَيْنَ الْحَسَدِ وَالْعَدَاوَةِ ، لَمْ يَسْبِقْنِي إِلَيْهِ أَحَدٌ ، وَلَا إِلَى كِتَابِ

* الجاحظ رحمه الله - أول الرسالة في : الحمد لله رب العالمين كما هو أملة
وصلى الله على محمد خاتم النبيين كما أمر به وعلى آل محمد كما منه محمد صلى الله
عليه وعلى آله وسلم كثيراً .

فضل الوعد الذي تقدم هذا الكتاب ، ولا إلى كتاب أخلاق
الوزراء الذي تقدم كتاب فضل الوعد . وإنما نبئت هذه
الكتب وحسنت وبرعت وبذت غيرها ، لما كتبتها شرف
الأشراف ، بما فيها من الأخبار الأنيقة الغريبة والآثار الحسنة
اللطيفة والأحاديث الباعثة على الأخلاق الحمودة والمكارم
لباقية الماثورة ، مع ما تضمنته من سير الملوك والخلفاء
وزرائهم وأتباعهم وما جرت عليه أحوالهم . فإنا أسألك
بساطع كرمك وناصع فضلك ، لما امتننت عليّ بصرف
غنايتك إلى قراءتها ، فإن لم يمكنك تبخيرها والتقضي لجنيتها ،
للأشغال التي تعروك ، فيحسبك أن تقف على حدودها
وتتعرف معاني أبوابها ، بتصفح أوائلها . فإن معك قلباً به
من اليقظة والذكاء والتوقد والحفظ ما يكفي معه نظر الخاطف .
إنه لم يخل زمن من الأزمان فيما مضى من القرون الدامية
إلا وفيه علماء محققون ، قد قرأوا كتب من تقدمهم ودارسوا
أهلها ومارسوا ... لهم وعابوا المخالفين عليهم ، فحضوا
الحكمة وعجبوا (٥٠) عيادها ، ووقفوا على حدود العلوم ،
فحفظوا الأمهات والأصول وعرفوا الشرائع والفروع ، فقرنوا
ما بين الأشباه والنظائر ، وصاقبوا بين الأشكال والأجناس ،
ووصلوا بين المتجاور والمتوازي ، واستنبطوا الغامض الباطن

بالظاهر البين ، واستظهروا على خفي المشكل بالمكشوف
المعروف ، وعرفوا بالفهم الثاقب واعلم الناصع ، وقضت لهم
الحجة بالذكاء والفطنة . فوضعوا الكتب في ضروب العلوم
وفنون الآداب ، لأهل زمانهم والأخلاف من بعدهم ، يزدلفون
بذلك إلى الممنّ عليهم بفضل المعرفة التي ركبها الله فيهم
وأبأنهم من غيرهم وفضلهم عليهم ، وبهون به الأمم المخالفة
لهم ، ويتبارون فيما بينهم .

ولهم تحساد معارضون من أهل زمانهم في تلك العلوم
والكتب منتحلة يدعون مثل دعاوهم ، قد وسموا أنفسهم
سمايات الباطل وتسموا بأسماء العلم على الجواز من غير حقيقة
ولبسوا لباس الزور متخرفين متشبهين بما لا محصول له ،
مخدون أمثلة المحققين في زعيم وهدسهم ويقتفون آثارهم في
مناظهم وأحاطهم وحرّكاتهم وإشاراتهم ، لينسبوا إليهم
بمخلوا بحكمتهم . فاستألوا بهذه الحجة قلوب ضعفاء العامة
جهلاء الملوك ، واتخذهم المعادون للعلماء المحققين عدة
ستظهرون بهم عند العامة . وحل المدعية للعلم المزور
لسد على يهت العلماء المحققين وعضيهم والطمع عليهم ،
جرأهم على ذلك ما رأوا من صغور ضعف القلوب وأذلة
ناس إليهم وميل جهلاء الملوك معهم عليهم . وأملوا أن

ينالوا بذلك بشاشة العامة ، وتستوي لهم الرياسة على طعام
الناس ورعايتهم ، ويستخولوا رعايتهم وقومهم . فهمزوا
وهددوا ، وتوردوا على أهل العلم بفجارتهم وكشفوا أعطية
الجهل عن أنفسهم وهتكوا ستراً كان مُسدلاً عليهم بالصمت -
فقد قيل الصمت زين العالم وستر الجاهل - طمعاً في الرياسة
وحباً لها . وقد قيل :

« حب الرياسة داء لا دواء له » وقل ما يجد الراضين بالقسم
ولم يخل زمن من الأزمنة من هذه الطبقة ، ولا يخلو . وهلاك
من هلك من الأمم قياً سلف بحب الرياسة ، وكذلك من
هلك ، إلى انقضاء الدهر ، فبحب الرياسة :
« هلاك الناس منذ كانوا » إلى أن تأتي الساعة
بحب الأمر والنهي وحب السمع والطاعة
فأشكل على العامة أمر العالم الحقيقي والمدعي المجادل
والمتحلل للزور والباطل . ثم ترادف عليهم من هذه العلل
التي يعنى لها السبيل الواضح والطريق المنشأ على الجاهل
المستضعف وفي اتقا المسترهف .

ولست آمن - جعلني الله فداك - أن تكون هذه
الكتب التي أعنى بتأليفها وأتأنتق في ترصيفها ، يتولى عرضها
عليك من قد ليس لباس الزور في اتحال وضع مثلها ،

وتنسب نفسه إلى القوة على نظائرها والمعرفة بما يُقاربها إن
لم يكن أخاها فإن عمتها ، ويشبع بما لم يُطعمه الله منها .
ولعل بعض من حوله أو بعض من ينزل بته ويرتفع في عقله
ويلهو بلبته ويضعه على طيطاية اللعب وفي أرجوحة العبث
بومه الحسد له على ما يدعي من ذلك ، ويتقدم إلى آخرين
في إيهامهم إتياء ذلك ، فيزيده فعلهم ضراوة بادعاء ما ليس
به وهو منه غار ، فإذا رجع إلى الحقائق علم أن مثله كما قد

وقد قيل الذئب يغيط وهو جائع ، فيلتوي في قراءتها
ويقبض لسانه عن بسط ما يحتاج أن ينشره منها ويقصر في
تخيم حروفها ولا يملأ منه منها .

بل لا آمن أن يتجاوز ذلك إلى الطعن عليها بقول أو
شارة ، فيؤهم فساد معانيها ويؤمى إلى سقوط ألفاظها ،
من غير أن يظهر المعادة لها والحسد لمؤلفها والحمل عليها
بقول يكون دليلاً على ما يُضمَر ، وهو أبلغ ما يكون من
لب المستمع وأنجمه فيه ، فيقع ذلك بخلكه . وقد قيل :

من يسمع يخل . وليس يقابله أحد برد ولا يوازيه بنزاع

فيزداد نشاطاً عند ما يرى من خلاء الأمر . وقد قيل : كل
مُجْرٍ في الخلاء يسبق وكل مناظر متفرد بالنظر مسرور .
وإنما يعرف جري الخيل عند المسابقة وبراعة النظر عند
المخاصمة .

وقال لي بشر المريسي : عرض كتابي على المأمون في
تحليل النبيذ ، وبحضرته محمد بن أبي العباس الطوسي .
فأنهري محمد للطعن عليه والمارضة للحجج التي فيه ، وأسب
في ذلك وخطب وأكثر وأطنب ، ففلق المأمون واحتدم
وماج واضطرم ، لاستحقار الطوسي وخلاء المجلس له . وكان
يجب أن يزعج وازع بكفه بحجة تسكته ، فلما لم ير أحداً
يدب عن كتابي قال متمثلاً :
يا لك من قنبرة بممر خلا لك الجو فيضي واصفري
وتقري ما شئت أن تنقري

فما كان إلا ريث فراغه من التمثل بهذه الأبيات حتى
استودن لي ، فدخلت عليه . فقال : يا أبا عبد الرحمن
ما تقول في النبيذ ؟ فقلت : حل طلق يا أمير المؤمنين .
فقال : فما تقول فيما أسكر كثيره ، قلت : لعن الله قلبه إذا
لم يسكر كثيره . ثم قال : إن محمداً بخالفك . فأقبلت على ابن
أبي العباس ، فقلت له : ما تقول فيما قال أمير المؤمنين

قال : لا خلاف بيني وبينك ، كلاماً يرمي به أهل المجلس ،
حجاً للتسلم مني والتخلص من مناظراتي ، لا على حقيقة التحليل
له . فاستغثت ذلك منه ، وقلت له فإني لا أرى أثراً قواه
في عقلك ؟ فضحك المأمون ، فلما رأيت ضحكه أطنبت في
معاني تحليل النبيذ ، وابن أبي العباس ساكت لا ينطق ، وكان
قبل دخولي ناطقاً لا يكت . فلما رأى المأمون سكوته عند
حضوره ، مع كثرة كلامه في ثلب كتابي وعيبه - كان -
قبل دخولي ، قال متمثلاً :

ما لك لا تنبج يا كلب الدوم قد كنت نباحاً فمالك اليوم
ثم نظر إلي فقال : إن الكتب هول قوم وراءها عندهم
حجج لها ، فما ينبغي أن يقضى على كتاب إلا إذا كان له
مدافع عنه وخصم بين عما فيه فإن أبناء النعم وأولاد
الأسد محسودون . ثم قال : يا أبا عبد الرحمن بإزاء كل حاسد
راهن ، وقد قيل في مثل من الأمثال : الحسن محسود ،
وفي مثل آخر : لن تعدم الحساء دأماً ، وقال الأحنف بن
قيس :

ولن تصادف مرعى ممرعاً أبداً إلا وجدت به آثاراً كويل
يقال يعاب في كل حسن ويؤكل منه فيعينه ذلك . وقال
عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما أحدث الله لعبده نعمة

إلا وجدت له عليها حاسداً ، ولو أنت امرءاً كان أقوم من
 القيد لوجدت له غامزاً . وقال عمر بن عبد العزيز رضي
 الله عنه : الحاسد لا يملك عنان حسده ، لأنه مغلوب على
 نفسه . وقال الخطاب بن عمير السعدي : الحاسد مجنون
 يحسد الحسن والقيح . وقال المهلب بن أبي صفرة : الحسد
 شهاب ، لا يبالي من أصاب وعلى من وقع .

والعداوة لها عقل تسوس به نفسها ، فينجم قرنها
 وتبدي صفحتها ، في أوقات الهتر ، وإلا فإنها كمنة تنتظر
 أزمنة الفرص ، والحسد ملوب المعقول يزاء الضمير في كل
 حين وزمان ووقت . ومن لؤم الحسد أنه موكل بالأدنى
 فالأدنى والأخص فالأخص ، والعداوة وإن كانت تقبح الحسن
 فهي دون الحسد ، لأن العدو المبين قد يحول ولياً منافقاً ،
 كما يحول الولي المنافق عدواً مبيناً ، والحسد لا يزول عن
 طريقته إلا بزوال المحسود عليه عنده . والعداوة تحدث لعل ،
 فإذا زالت اللة زالت معها ، والحسد تركيب لعله (٥٢)
 يحسد عليه ، فهو لا يزول إلا بزواله .

ومن هذا قال معاوية رحمه الله : يمكنني أن أرضي الناس
 كلهم إلا حاسداً نعمة ، فإنه لا يرضيه منها إلا زوالها .
 وأعداء النعمة إذا شوركوا فيها وثألوا منها ترحزوا عن

عداوتها وكانوا من أهلها الحاميين عنها والدافعين عن حماها .
 ومن هذا قال المغيرة بن شعبه : نعمة التي يعيش فيها
 نعمة محروسة ، ليس عليها ثأر يفتافا ولا ذو حسد يحتال
 في غيرها .

وقال قتبية بن مسلم : خير الخير وأحصنه خير عيش
 فيه . وكل خير كان يوضح بدلاً ؛ كان من المتالف ممنوعاً ومن
 الغير آمناً .

وحساد النعمة إن أعطوا منها وتبجحوا فيها ، ازدادوا
 عليها غيظاً وبها إغراء . والعداوة خلق وتمل والحسد غص
 جديد حرام إذا عطى (٥٣) لا يبيد . فكل حاسد عدو
 وليس كل عدو بحاسد . وإنما حمل اليهود على الكفر بمحمد
 ﷺ - وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، أنه نبي صادق
 ورسول محق يقرّون بعثه في توراتهم ويتدارسونه في بيت
 مدراسهم - الحسد ، وحجز بين علمائهم والإيمان به ، ثم
 نتج لهم الحسد عداوته .

ومن الدليل على أن الحسد آلم وآذى وأوجع وأوضع من
 العداوة ، أنه مغرى بفعل الله عز وجل ، والعداوة عارية
 من ذلك لا تتصل إذا اتصلت إلا بأفعال العباد ، ولا يعادى
 على فعل الله تباركت أسماؤه . ألا ترى أنك لم تسمع بأحد

عادي أحداً لأنه حسن الصورة جميل المحاسن فصيح اللسان
حسن البيان ، وقد رأيت حاسداً هذه الطبقة وسمعت به ،
وهم كثير تعرفهم بالخبر والمشاهدة . فهذا دليل على أن
الحسد لا يكون إلا عن فساد الطبع واعوجاج التركيب
واضطراب السوس .

والحسد أخو الكذب يحريان في مضاري واحد ، فهما أليفان
لا يفترقان وضحيان لا يتباينان . والعداوة قد تخلص من
الكذب ، ألا ترى أن أولياء الله قد عادوا أعداء الله ، إذ لم
يستحلوا أن يكذبوا عليهم . والحسد لا يبرأ من البهت ،
وكيف يبرأ منه وهو عموده الذي عليه يعتمد وأساسه الذي
به البناء يعقد . وأنشد :

كضرائر الحسناء قلن لوجهها كذبا وزورا إنه لدميم
والحسد نار وقوده الروح لا يبوخ أبداً ، ويفني الوقود
والحسد لا يبلى إلا ببلى المحسود أو الحاسد . والعداوة جمر
يوقده الغضب ويطفئه الرضا ، فهو مؤمل الرجوع مرجو
الإثابة . والحسد جوهر والعداوة اكتساب . وقال بعضهم
الحسد أنثى لأنه ذليل والعداوة ذكر فحل لأنها عزيزة
والحسد وإن كان موكلاً بالأدنى فالأدنى ، فإنه لم يعم منه
الأبعد فالأبعد .

فقد رأينا وشاهدنا من كان يسكن العراق وينتحل العلم
والأدب انتهى إليه خبر مشارك له في الصناعة ، من أهل
خراسان وحده (٥٤) بلغ ، من اتساق الرياسة له في بلده
وجميل حاله ونبيل عمله عند أهل مصره وطاعة العامة له
وترادف الناس عليه ، فطار قلته فترقا وأخذته الأرباء
وتنفس الصعداء وانتفض انتفاض الملعس المطور (٥٥) ،
فقال لي رجل من إخواني كان عن يميني حين رأي ما رأي
منه : بحق قال من قال : لم ير ظم أشبه بمظلوم من حاسد
نعمة ، فإن نفسه مقصّل وكربه دائم وفكره لا تنام .

وهو في أهل العلم أكثر وعليهم أغلب وبهم أشد لصوقاً
منه بغيرهم من الملوك والسوقة . وكانت من ناله التقصير في
صناعة العلم عن غايته القصوى ، قد استشعر حسد كل
ما يرد عليه ، من طريف أدب أو أنيق كلام أو بديع معنى ،
بل قد وقع بخلفه لضغفه وقر في روعه الحساسته ، أنه
لا ينال أحد منهم رياسة في صناعة ولا يتبها له سياسة أهلها ،
إلا بالطعن على نواصيهم والعيب جللتهم والتحيف لحقوقهم .

قال لي مسلم بن الوليد الأنصاري الشاعر الذي يعرف
بضريح الغواني : خيل إلى نوكسي (٥٦) الشعراء أنهم
لا يقضى لهم بحودة الشعر ، إلا بهجائي والطنن في شعري

ولسان يهجي به عرضي ، لا أنفك متبها من غير جرم ، إلا ما سبق إلى قلوبهم من وسوس الظنون والخواطر التي أوهمتهم أنه لا يسجل لهم بحودة الشعر ، إلا إذا استعملوا في ما خيل إليهم .

وأخبرني أشياخنا من أهل خراسان أن أبا الصلت الهروي كان عند الفضل ابن سهل ذي الرياستين بمرو ، فقرأ عليه كتابا ألفه النضر بن شميل ، فظعن أبو الصلت فيه . وكان الفضل عارفا بالنضر الشيملي واثقا بعلمه مائلا إليه . فاقبل على أبي الصلت وقال له : إن يحيى بن خالد قال يوما : إن كتيبت لترض علي من يغفلظ فهمه عن معرفتها ويحسب ذمها عنها ولا يبلغ أقصى علمه أمانها - يمرض باسماعيل بن صبيح - فيظعن فيها ولا يدري ما يقرأ عليه منها ، إلا أن نار الحسد تلهيه ، فيهدي هذيان المريض وهمز ميزان المعزى ثم لا يرضى أن يقف عند أول الطعن ويمسك عنه حتى يستقصي على نفسه إظهار جهله عند أهل المعرفة باستيعابه الطعن على ما لم يبلغ درايته ولم يحط به علمه ، ثم ينسيه جهله الطعن الذي تقدم فيها ، ويحمله توكفه على استعمال معانيها وألفاظها ، في كتبه إلى إخوانه وأعوانه الذين شهيدوه في أوان طعنه عليها وحين تلبه لها .

فقد عرفت حقيقة ما قال يحيى بن خالد بالتجربة والابتلاء ، وإني ربما ألفت الكتاب الحكم المتن ، في الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والحراج والأحكام وسائر فنون الحكمة ، وأنسبه إلى نفسي ، فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم ، بالحسد المركب فيهم ، وهم يعرفون براعته ونصاعته . وكتب ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلفا لملك معه المقدمة على التقديم والتأخير والخط والرفع والترتيب ، فإنهم يتجون عند ذلك احتياج الإبل المغتلة . فإن أمكنتهم حيلة في إسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذي ألف له ، فهو الذي قصده وأرادوه . فإن كان السيد المؤلف فيه الكتاب تحرياً نقاباً ونقرياً (٥٧) ليغيا وحاذقا فطنا ، وأعجزتهم الحيلة ، سرقوا معاني ذلك الكتاب ، وألقوا من أعراضه وحواشيه كتابا وأهدوه لملك آخر ، ومنتوا إليه به . وهم قد ذمموه وثلبوه ، ثم رأوه منسوبا إليهم وموسوما بي . وربما ألفت الكتاب الذي هو دوني في معانيه وألفاظه ، فترجمه باسم غيري ، وأحيله على من تقدمني عصره ، مثل من المقفع والخليل وسلم صاحب بيت الحكمة ويحيى بن خالد والعتابي ومن أشبه هؤلاء ، من مؤلفي الكتب . فيأتيني

أولئك القوم بأعيانهم الطاعنون على الكتاب الذي كان
أحكم من هذا الكتاب ، لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته علي ،
ويكتبونه بخطوطهم ويصيرونه إماماً يقتدون به ،
ويتدا رسونه بينهم ويتأدّبون به ، ويستعملون ألفاظه ومعانيه
في كتبهم وخطاباتهم ، ويروّونه عني لغيرهم من طلاب
ذلك الجنس . فثبت لهم به رياسة ، ياتم بهم قوم فيه لأنه لم
يترجم باسمي ولم ينسب إلي تأليفي .

ولربما خرج الكتاب من تحت يدي 'محصفاً كأنه متن'
حجر أملس ، بمعانٍ لطيفة محكمة وألفاظ شريفة فصيحة ،
فأخاف عليه طعن الحاسدين إن أنا نسبته إلى نفسي ، وأحسد
عليه من أهتم بنسبته إليه ، لجودة نظامه وحسن كلامه ،
فأظهره 'مبهماً غفلاً' ، في أعراض أصول الكتب التي لا يعرف
'وضاعها' فينهالون عليه انهيار الرمل ويستبقون إلى قراءته
استباق الخيل يوم الحلبة إلى غايتها .

وحسد الجاهل أهون 'شوكة' وأذل 'محبة' ، من حسد
العارف الفطن . لأن الحاسد الجاهل يبتدر إلى الطعن على
الكتاب في أول وهلة يقرأ عليه ؛ من قبل استتمام قراءته
ورقة واحدة . ثم لا يرضى بأيسر الطعن وأخفه حتى يبلغ
منه إلى أشده وأغلظه ، من قبل أن يقف على فصوله وتحروفه .

وليس يثلثه مفسراً مفصلاً ؛ ولكته 'يحمل' ذلك ويقول :
هذا خطأ من أوله إلى آخره وباطل من ابتدائه إلى انقضائه .
ويحسب أنه كلما ازداد إغراقاً وطعناً وإطناً في الحمل على
وضع الكتاب ؛ كان ذلك أقرب إلى القبول منه . وهو لا
يعلم أن المستمع إليه إذا ظهر منه على هذه المنزلة استخف به
وبكته بالجهل ، وعلم أنه قد حكم من غير استبراء وقضى ؛
بغير روية ؛ فسقط عنه قبطل . والحاسد العارف الذي فيه
تقية ومعه مسكة وبه طعم أو حياء ، إذا أراد أن يقتال
الكتاب ويحتال في استعماله ، تصفح أوراقه ووقف على حدوده
ومفاصله وردد فيه بصره وراجع فكره وأظهر عند السيد
الذي هو بحضرته وجلسائه من التثبت والتأني ، 'حباله'
بقتنص بها قلوبهم وسبباً يستدعي به ألبابهم وسلماً يرتقي به
إلى مراده منهم وبساطاً يفرش عليه مصارع الخدع ، فيؤهم
به القصد إلى الحق والاجتهاد له . فربما استدعى بهذه الخاتل
والخدع قلب السيد الحازم .

فمن أعظم البلايا وأكبر المصائب على مؤلفي الكتب ،
إذا كان العارض لها على السيد الذي منه ترجى أمانها وعنده
تنفق بضائع أهلها ، على هذه الصفة التي وصفتها ، من الحسد
والحذق بأسبابه والمعرفة بالوجوه التي تلم المحسود وتهدمه .

غير موافقة على مواضع. ويجعل ما قد تقدم له من الرجوع
في قوله عند التبين له خلاف ما قال ، أوثق أسباب عدالته
حكم عري تصفته .

وكان يقال : من لطيف ما يستدعي به الصدق إظهار
ك في الخبر الذي يشك فيه . وكان يقال : من غامض الزيادة
تري بأنك لا ترائي . ومن أبلغ الطعن على ما تريد الطعن
، أن تطعن ثم تستغفر الله ، ثم تمهل فترة ، ثم تعود لطعن
أعظم منه وأطم من الأول ، ليوثق بك فيه ، ويقال :
هذا لو كان غن حديد ما رجع عن الطعن الأول . وقد
: ذو الغيبة المشهور بها المنسوب إليها ، يقل ضرره
ضعف كيدته ، لما ساع له في التماس وانتشر منه . فكانت
ظنيها متبهما ومطبوعا عليها ، يستمعون منه على قضاء
المجالسة والتلذذ به ، من غير قبول ولا اصطفاء له . وإنما
في غيبة حذائق المفتابين الذين يسمعون فيضحكون ولا
كلمون . وأحذق منهم الذين يستمعون ويسكتون القائل ،
إليه بالصلاح للمقول فيه . فهم قد أسكتوا القائل
، ودعوا للمقول فيه ، وأوكذوا قول القائل ، لأنه لو
عندهم تحلل البراءة بما قيل له ، لجه القائل وردع عن

وتضع منه ومن كتبه ، لا سيما إن كان مع استبطان الحسد
واستعمال الدهاء والذكاء ، جليسا لازما وثابعا لا يفارق
ومحدثا لا يريم ، وليست له رعة تحجزه عن الباطل ولا معه
حذر يبعثه على الفكر في العواقب . فإن هذا وربما وافق
فترة السيد ، بطول تردد الكلام وكثرة تكراره عليه ،
من تأكيد خطابه ونصرتة قوله وزيادته عنه واحتجاجة له
فيؤثر في قلبه ويضجع رأيه . فليس للسيد الذي يحب أن
تصير إليه الأمور على حقائقها وتصوّر له الأشياء على هيأتها ،
حيلة في ذلك إلا حسم مادة هذا من أهل الحسد ، بالإعراض
عنهم والاحتجاز دونهم .

وربما بلغ من الحاسد جهد الحسد ، إذ لم يعمل بشهوته
ولم تنفذ سهام لطائفه ، أن يُقرّ على نفسه بالخطأ ويعترف أن
الطعن الذي كان منه في الكتاب عن سهو وغفلة ، وأنه لم يكن
بلغ منه في الاستقصاء ما أراد ، وكان مشغول الفكر من
الذهن ، فلما فرغ له ذهنه وانفرد له همه ، راجع وكان يسدر
منه عن وهم وخطأ ، لتظن به الرعة ، ويقال إنه لم يرجع عن
قوله واعترف بالخطأ ، إلا من عقل ودين خالص . وإنما
ذلك حيلة منه ودعاء قديمه أمام ما يريد أن يؤكد لنفسه
ويوطئ لها ، من قبول القول في سائر ما يرد عليه من الكتب

ومُظهر التوقّي قليله عند العامة كثير ، والمتورد المتقهم
لا تكاد العامة تقبل منه . وقد قال بعض العلماء : إن عبيد الله
بن عبد الله بن عتبة بن مسعود كان من نبلاء المغتربين . وحذاقهم
حيث يقول :

مما تراب الأرض منه خلقتما
وفيها المعاد والمصير إلى الحشر

ولا تعجبا أن تؤتيا وتُعظما
فما حُشي الإنسان شراً من الكبر
فلو شئت أدلي فيكما غير واحد

علانية أو قال ذلك في سر
فإن أنا لم آمر ولم أنه عنكما
ضحكت له حتى يلج فيستشري

ومن هذا سرق العتايي المعنى حيث يقول :

إن كنت لا تحذر شتمي لما تعرف من صفحي عن الجاهل
فاخش مكوتي سامعاً ضاحكاً فيك لمشنوع من القائل
مقالة السوء إلى أهلها أسرع من منحدر السائل
ومن دعا الناس إلى ذمّه ذمّوه بالحق وبالباطل
وقال القاسم بن معن : كان أبو حنيفة رحمه الله يبلغ
بالتبسم من الثوري ما لا يبلغ الثوري بالتصريح منه .

وسئل القاسم بن معن عن ابن أبي ليلى ، فقلب كفه وقال :
من الناس من يخفي أبوه وجده .

وجده أبي ليلى كالبدن ظاهر
فلم تثبت عليه به حجة في ذم له لا مدح ، وقد بلغ
ما أراد .

وسئل يوماً عن علمه فقال : أوعى وطباً ، فإن كان محضاً
أو مشوباً أظهره الوطب وما خضوه

فإن قدح - جعلني الله فداك - بالحسد قاذح ، فيا
أؤلفه من كتابي لك وسبق إلى وممك شك فيه ، أعلمتني
النكتة التي قدح فيها ، ثم قابله بحوايي ، فإني أرجو ألا
يحتاج إلى حاكم عند تجائي القولين بيدك ، لعلو الحق على
الباطل ودموغه إياه .

والحسد أذلّ نفاً من أن يجائي أحداً ، والعداوة إنما
قدّمت عليه لأنها عزيزة منيعة . ويقال : الحسد لا يبدو إلا
في العين وعلى اللسان المقصور عند المتكلمين على (٥٨) ،
والعداوة تبدو وتنجم قرونها وينبسط لسانها ، عند الموافقين
له والمخالفين عليه .

وسئل خالد بن صفوان عن شبيب بن شيبه فقال : ذاك
امرؤٌ سيط بالحسد وجبل عليه ، فليس له أخ في السر ولا

عدو في العلانية .

وسئل العتابي عن أهل بغداد فقال : حساد ، إخوان العلانية وأعداء السريرة ، يعطونك الكلّ وبنعونك القلّ .

ومما يدلّك على أنّ الحسد أخسّ وأغبن من العداوة أنّ الملل كلها ذمته وعابته . ولا نعلم أن شاذاً من الشواذّ وشارداً من الشرّاد ، فضلاً عن جيلٍ من الأجيال ، أمر بالحسد ، كما قد قيل : عاد من عاداك ، وقارع بالعداوة أهلها .

ثمّ عظم شأن العداوة عندهم وجلّ قدرها لديهم ، حتى اختلفوا في سبّلها ووجوه العمل فيها ، فمنهم من أمر بها على الحزم والعقل . وقال الشعبي لبشر بن مروان : لو وجهت إلى عمرو بن محمد بن عقيل مولى آل الزبير ، وكان شتمه ، من يأتبك به سحياً وجراً . فقال بشر : إني مستعمل في عدوتي قول القائل :

وعاد إذا عاديت بالحزم والنهي

كنل ظفراً ممزّز تريد وتغلب

فكان هذا ممن يرى المعادة بالحزم ويفتألها بالعقل والتأني . وكان عروة بن المغيرة يقول : شرّ العداوة ما ستر بالمدارة وأشفاها للأنفس ما قرّع بمثلها بادياً . وكان ينشد :

لا أنتقي الضغائن بالرقي

فعل الذلّ ولو بقيت وحيداً

لكن أعداء لها ضغائن مثلها
حتى أداري بالحقود حقوداً

كالخمر خير دوائها منها بها

تشفي السقيم وتبرئ المنجودا

فأنتهى قوله إلى ابن شبرمة فقال : لله درّ عروة هذه أنفس العرب . فهؤلاء رأوا كشف المعادة ولم يروا التآني . ومنهم من رأى المعادة بعد الفراق منها والإعذار فيها ، فإن هي أبت إلاّ المقارنة قارتوها بمثلها . قال شبيب بن شيبه : إذا رأيت الشرّ قد أقبل إليك فتطامن له حتى يتخطاك ، ولا تهجنه ولا تبحث عنه ، فإن أبى إلا أن ينزل عليك فكن من الأرض ناراً ساطعة تتلقى . وأنشد :

إذا عاداك محتنيك لبيب فعاد النوم واحترس البيئات
ولا تثر الربوص (٥٩) واخل عنها وإن ثارت فكن شبحاً موأناً
تحول إلى سواك ونح عنها فخير الشرّ أسرع فواتاً
وإن مالت عليك وخفت منها فواجهها بجاهرة صلوات
ومنهم من أمر بقبول الإنصاف وترك الحاسبة . قال عبيد الله بن عبد الله بن مسعود : إن الملامات والمذمات كلها قبيحة ، وأقبح الملامة والمذمة ما كانتا في ترك نصفه أو شدة

منافسة في تعداد الذنوب . وأنشأ يقول :

منافسة العدو أو الصديق تجرُّ إلى اللذمة واللامه
إذا أعطاك نصفاً ذو ودادٍ وبعض النصف فانتهاز السلامه
ومنها من قال : لا ترض من عدوك إلا بالظلم ، ولا تقبل
إنصافه ونافسه . من ذلك قال العباس بن عبد المطلب :

أبا طالب لا تقبل النصف منهم ولو أنصفوا حتى تعق وتظلموا
ومنها من أمر بمعونة الدهر على العدو إذا حمل عليه .
قال : حدثني إبراهيم بن شعبة المخزومي ، قال : سمعت من
حكى لي عن مصعب بن الزبير قال : إذا رأيت يد الدهر قد
لطمت عدوك فبادره برجلك ، فإن سلم من الدهر لم يسلم منك .
وأنشد :

إذا برك الزمان على عدوِّ بنكبه أغنت له الزمانا

قال العتابي : قلت لطوق بن مالك : إن من شرط الدهر
ومن صناعة الزمان السلب ، فإذا حملت الأثام على عدوك
ثقلًا وأمكنتك منه ، فزده ثقلًا إلى ثقاه . قال . فقال لي
طوق : من لم ينتهز من عدوه انتهازاً منه ، وحالت الأيام التي
كانت بيضاً عليه سوداً . وأنشد :

لله درك ما ظننت بئائري حراً أن ليس على التراب براق
أحقدته ثم اضطجعت ولم ينم أسفاً عليك وكيف نوم الحاقد

إن تمكن الأيام منك وعلتها يوماً ففك بالصواع الزائد
ولئن سلمت لأتركك عارضاً بعدني لكلّ مسالم ومعاند
ومنها من كان يرى جبراً كسر العدو وإقالة عثرته
ونصرته عند وثوب الدهر عليه . قال : حدثني ابن عبد
الحديد ، قال ابن شبرمة : كانت الحرب يوم صفين بين العرب
محضة لا شوب فيها ، فكانت محاربتهم كراً واعتناقاً ،
وكانوا إذا مروا برجل جريح كانوا يقولون : خذله قومه
فانصروه وألقاه دهره بمضيعة فردّوه إلى أهله .

وقال ابن شبرمة : ما زلنا نسمع أن المصيبات تنزع
للسجيات . قال : وأنشدني بعض أهل العلم في هذا المعنى :

لو بي بدأتم قبل من قد دعوتهم

لفرجتها وسدي ولو بلغت جهدي

إذا المرء ذو القربى وذو الجند أجحت

ومنها من رأى الإفضال على عدوه وترك مجازاته ، وهذا
شئ لا يحتاج فيه إلى استقصاء شواهد .

قال غيلان بن خرشنة الضبي ، وقال بعضهم بل الأحنف
قيس : لا يزال العرب بخير ما ليست البغائم وتقلدت
سيوف وزكبت الخيل ولم تأخذها حية الأوغاد . قيل : وما

قال : أنشدني منه ، فأنشده :

وإننا لقوم ما نعوذ خيلنا
وتنكر يوم الروح ألوان خيلنا
من الطين حتى يحسب الجون أنشرا
صحا حاروا لاستنكر أن نعفرا
وليس بمروء لنا أن نردما
بلقنا الساء بجسدنا وسناؤنا
وإننا لنبغى فوق ذلك مظهرنا
فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى أين يا أبا ليلى ؟

فقال : إلى الجنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى الجنة إن شاء الله . ثم رجع في قصيدته فقال :

ولا خير في جهل إذا لم يكن له
ولا خير في حلم إذا لم يكن له
بوادر تخفي صفوه أن يكدرها
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا فض الله فاك .
فأنت عليه عشرون ومائة سنة ، كلما سقطت له سن أنثرت
أخرى مكانها ، لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فهذا
أحسن ما روي في المائدة التي يُصان بها الحلم .

وقال الشاعر الجاهلي :

صفحنا عن بني ذهل
عسى الأيسام أن يرحم
وقلنا القوم إخوان
ن جيبا كلذي كانوا
الله صرخ الشر
شينا مشية اللث
بدا واليث غضبان

حيته الأوغاد ؟ قال : أن يروا الحلم ذلا ، والتماعب ضبا .

وقال الشعبي لرجل قال له : ألا تنتقم من فلان ؟ فقد عاداك

ونصبت لك . فقال :

ليست الأحلام في حال الرضا إنما الأحلام في حال الغضب
وأنشدني بعض العلماء بيتين ، وقال : إن الزهري كان

كثيرا ما يمشل بها :

وإني لأعدائي على المقت والتلى
أذيب وأرعي بالخصا من ورائهم
بني العم منهم كاشح وحود
وأبدأ بالحنى لهم وأعود

وكان عبد الله بن عمرو أن إذا أنشد :

إني وإن كان ابن عمي كاشحا
ومعيرة نصري وإن كان امرأ
وإن اكتسى ثوبا نسيسا لم أقل
وإذا تحرق في غناه وقرنه
لم ارجم من دونيه وورائه
متحرزا في أرضه وسعائه
بليت أن علي حسن رداؤه
وإذا تصمك كنت من قرناؤه
قال : هذا والله من شعر الأشراف ، نفى عن نفسه الحسد

واللوم والأنتقام عند الإمكان والسألة عند الحاجة .

ومنها من أمر بالسفه في المداوة ، واستعمال الخرق فيها .
حدثني فرح ابن أحمد ، عن أبيه ، عن جده ، عن ابن عباس ،
قال : جاء النابغة الجعدي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فقال : هل معك من الشعر مسا عفى الله عنه ؟ قال : نعم ،

بضرب فيه توهين وتضجيع وإذعان
وطعن كغم الزق وما والزق ملآن
وفي الشر نجاة حين لا ينجيك إحسان

حدثنا أبو مسهر ، عن أبيه ، عن خالد بن عمرو الكلبي ،
قال : كنا مع أبي برزة الأسلمي في غزاة ، فكان منا رجل
يمتار لنا الميرة ويقوم بجوائجننا ، فإذا أقبل قلنا : جزاك الله
خيراً ، فغضب لدعائنا ، فشكونا ذلك إلى أبي برزة ، فقال
أبو برزة : كنا نسمع أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر ،
فأقبلوا له . فكنا نقول له إذا أتانا بالحوائج : جزاك الله شراً
وعسراً ، فيضحك لذلك .

وأنشدني رجل عن بعض الأعراب :

أرى الحلم في بعض المواطن ذلة وفي بعضها عزاً يشرف فاعله
إذا أنت لم تدفع بجملك جاهلاً سفيهاً ولم تقرن به من يجاهله
لبست له ثوب المذلة صاغراً فأصبح قد أودى بحقك باطله
فابق على جهال قومك أنه لكل حكيم موطن هو جاهله

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : استوصوا
بالغوغاء خيراً ، فإنهم يطفئون الحريق ويسدون البثوق .

وقال أبو سلمى في الجاهلية :

لا بد للسودد من رماح ومن عدام يُتقى بالراح
ومن كلاب جمة النباح

وقال مسلم بن الوليد :

حلفت لئن لم تكفي سفهاء خزاعة والحيثان عوف وأسلم
لأرتجعن الوء بيني وبينها بقافية تقرري العروق فتجسم
من اللاء لا يرجعن إلا شوارداً لئن بأفواه الرجال تههم
أصابوا حليفاً استعدوا يجاهل إذا الحاء لم يمنعك فالجهل أحزم

ولم نستقص الأبواب كلها المعارضة في هذا الكتاب ، ولو
استقصينا لطالت بنا الأيام وتراخت الليالي ، إلى بلوغ الغاية في
تمام الكتاب . وإنما ذكرنا من كل باب عرضاً ما دل على معناه
الذي إليه قصد .

ولم نر الحسد أمراً به أحد من العرب والعجم في حال من
الأحوال ، ولا ندب إليه ونبه عليه . وقد نبه على العداوة ،
وفصل بين أحوالها بما قد بيناه ، فظهر فضلها على الحسد
بذلك .

وكنت امرأة قليلة الحساد ، حتى اعتصمت بعروقتك
واستمسكت بجملك واستذرات في ظلك ، فتراكم علي

الحساد وازدحموا ، ورموني بسهامهم من كل أوبى وأفقي ،
وتتابعوا عليّ تتابع الدّبر على مشار العسل . ولئن كثروا
لقد كثر بهبوب ريحك اخواني ، وبنصرة أيامك وزهرة دولتك
مُخلاني . وأنا كما قلت :

فاكثرت مُحادي وأكثرت مُخلتي
وكنْتُ مُحادي قليل ومُخلاني

فلما بلغت هذا الفصل من تأليف هذا الكتاب ، دخل
عليّ عشرة نفر من الكتاب ، قد شملهم معروفك ورفع
مراتبهم جميل نظرك ، فهم من طاعتك والمحبة لك على حسب
ما أوليتهم من احسانك وجزيل فوائذك . فأفاضوا في
حديث من أحاديث الحسد ، فشعب لهم ذلك الحديث شعوبا
افتتوا فيها ، والحديث ذو شجون . فما برحوا حتى أتتني
رقعة أناسية من الحساد ، فيها سهام الوعيد ومقدمات
التهديد والتحذير والتخويف للطعن على ما أوْلِف من الكتب ،
ان أنا لم أضين لهم الشركة فيما يجري عليّ . فدفعت رقعتهم الى
من قرب اليّ منهم ، فقرأها ثم قال : قاتلهم الله أبظلم يرمون
النيل ويلتمسون الشركة في المعروف . لتزع بالكلاليب أهون
من بذل معروف بترهيب . وأنشأ يقول :

أما الحوادث من خلتي لك مثل جندلة المزاجم
قد رامني الأعداء قبلك فامتعت من المظالم
ودفعها الى من قرب منه فقراها ، وقال الثاني : صكة
جلود لكل مُرعد حسود يستمطر العُرف بالتهديد ، خجل
الوعيد يذهب في اليد . وأنشأ يقول :

أبرق وأرعد يا يزيب دفا وعيدك لي بضائر
ودفعها الى الثالث فقرأها وقال : سألوا ظلما وخوفوا
هضما ، لقوا حربا وكفيت ملما . وأنشأ يقول :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يا مربع
ودفعها الى الرابع فقرأها وقال : قول الدليل وبوله
سيان . وأنشأ يقول :

ما ضرّ تغلب وائل أمجوثها أم بليت حيث تناطح البخران
ودفعها الى الخامس فقرأها وقال : نهيق الحمار ودم الأعيار ،
جبار جبار . وأنشأ يقول :

ما أبالي أنب بالحزن تيس أم لحاني بظهر غيب ليم
ودفعها الى السادس فقرأها وقال : إذا علقنك الأبحاد
فليهن عليك الحساد . وأنشأ يقول :

إذا أهل الكرامة أكرموني فلا أخشى الهوان من اللثام

ودفعها إلى السابغ فقرأها وقال : كيف يخاف الصرعة من
هو في ذي المنعة . وأنشأ يقول :

كم تلبحون وما يقني نباحكم
ما يملك الكلب غير النبح من ضرر

ودفعها إلى العاشر فقرأها وقال : توكي هلكي ، لم يعرفوا
خبرك ولا دروا أمرك . وأنشأ يقول :

فلو علم الكلاب بنو الكلاب
بجالك عند سيدنا لذلوا

وعندي صديق لي من السوقة له أدب ، فقال لي بعقب
فراغهم مسيراً : إن هؤلاء الكتاب قد أظهروا الاستخفاف
بقول الحساد ، وضربوا الأمثال في هوانهم عليك ، وعرفوا
أنك في منعة من عز أبي الحسن - أطال الله بقاءه - ومعقل
لا يسامى ولا ينال ، وأنا أقول بالشفقة :

توق قوماً من الحساد قد قصدوا
لخط قدرك في سر وفي علن

فقلت له : إني أقول بيتين هما جوابك وجواب الحساد :

إن ابن يحيى عبيد الله أمني
من الحوادث بعد الخوف من زمي

فلست أحذر حسادي وإن كذرا
ما دمت لمسك حبل من أبي الحسن

فلما رأى صديقي اقتفاني آثار الكتاب ، باستهاني
بالحساد عند اعتلاقي حبالك - أعزك الله - أنشأ متملاً
يقول بشعر نصر بن سيار :

إني نشأت وحسادي ذوو عديد
يا ذا المارج لا تنقص لهم عددا
إن يحسدوني على ما قد بنيت لهم
فمثل حسن بلاني جر لي الحساد

وليس العجب أن يكثرُوا ، وأنا أنفق بحاسنك وأمتف
بشكرك ، ولكن العجب كيف لا تتفت أكبادهم كمداً . وكان
بعضهم يقول : اللهم كثّر حسد ولدي ، فإنهم لا يكثرُونَ
إلا بكثرة النعمة . فإن كان والذي سبق منه هذا الدعاء ،
فإن الإجابة كانت مخبوءة إلى زمان عزك ، فقد رأينا تباشيرها
وبدت لنا عند عنايتك غايتها .

وكان بعض الصالحين يقول : اللهم اجعل ولدي محسودين
ولا تجعلهم مرحومين ، فإن يوم المحسود يوم عزه ويوم الحاسد
يوم ذله .

ويقال إنه لما مات الحجاج سمعوا جارية خلف جنازته
وهي تقول :

اليوم برحمتنا من كان يحسدنا
واليوم نقبض من كانوا لنا تبعاً

ويقال إن زياد بن أبيه قال لحُرقة ابنة النعمان : أخبريني
بجالحكم ، قالت : إن شئت أجملت وإن شئت فسرت ، فقال
لها : أجملي ، فقالت : بتنا نَحْسِدُ وأصبحنا نُرْحِمُ . فخطبها
زياد - وكانت في دير لها - فكتفت عن رأسا ، فإذا رأس
مخلوق ، فقالت : أُرأس عروس كما ترى بزياد ؟ وأعطاها
دنانير فأخذتها وقالت : جزتك يد افتقرت بعد غنى ، ولا
جزتك يد استغنت بعد فقر .

ولا نعلم الحسد جاء فيه شيء أكثر من حديث رُوِيَ عن
النبي صلى الله عليه وسلم : لا حسد إلا في اثنين ، رجل آتاه الله
حفظ القرآن فهو يقوم به آتاء الليل وآتاء النهار ، ورجل آتاه
الله مالا فهو ينفقه في وجوه البر آتاء الليل وآتاء النهار . فهذا
الحسد إنما هو في طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله صلى الله
عليه وسلم .

وقال بعض الأشراف :

أجسد على نيل المكارم والعلل
إذ لم تكن في حالة المحود
حد الفتى في المكرّمات لغيره

كرم ولكن ليس بالمعدود
فهذا ما انتهى إلينا من أخبار الحسد . وزادك الله شرفاً
وفضلاً وعلماً ومعرفة ، ولا زلت بالمكان الذي يُهدي إليك
الكتب ، ويتحف بنوادر العلوم وفرائد الآداب إنه قريب
محيب (*) .

* تم الكتاب والله المنة وبيده الحول والقوة .

شرح الكلمات العويصة التي اشتس عليها هذا الكتاب

١ - الحكمة :

تمتد معاني هذه الكلمة حتى تشتس كثيراً ولكن الاصطلاح
جزرها وكف يدها وكاد يقصرها عن الطب ، والجاحظ هنا
لا يعني بها الا العبرة والموعظة والزسر والكف عما لا يعني .

يقال : حكمته : أوقفه عند حبه كأن الحكمة عقول للجمل
أو لجام للفرس وكان العرب في جاهليتهم كادوا يحصرونها بهذا
المعنى اذ نسمع شاعراً يتوعد بني حنيفة (إحدى قبائل نجد
رهط مسيلة) بقوله :

أبني حنيفة حكموا بفهمكم
إني أخاف عليكم أن أغضباً

ابني حنيفة انني ان اهنكم

ادع اليامة لا نوارى ارنبا

أي حولوا بين سفهاءكم وبين التعرض لتشيرتنا خشية ان
يجرجوي فافصم لحومكم هجواً ودماً ويدفعوني إلى هاربة غضب
قد تدمر ارباضكم وتجعل اليامة - احدى محافظات نجد - قاعاً
صفصفاً لا يستطيع الأرنب ان يجدها ملجأ أي لا يبقى بها
حجر على حجر !

ثم اتسعت كلمة حكمة بعد الاسلام فاطلقت على الوحي ،
كما أصبحت ترادف كلمة (فلسفة) !

٢ - الخلق للأعراض ، لداة ، جدة :

الخلق للأعراض ، الذي يجعل الأعراض خلقاً أي بالياً ،
والأعراض هي موضع القدح والذم من الرجل ، يقصد ان تسلط
اللهو على الشخص يجعل عرضه - أي كرامته - بالياً أي قديماً
مهترئاً يعني ان الإنسان إذا أطاع سلطان الهوى ومسال مع
النفس الأمارة ، تناقص قدره وأوغل الناس في تناول لحمه بفم
القدح والطمع والتحفيف (الظلم) أي التنقيص الذي قد يبالغ
به الطاعنون فيقلب جوراً وظلماً واجحافاً ويعني بذلك كله
ان الناس يطعنون كرامة من يخني عنقه لسلطان الهوى ويذهب

وقته في ما لا يجدي وتصبح اللداة الخصومة متغلبة على
تصرفاته وينفق (الجدة) : المال في ما لا يعود عليه ولا على
امره وقومه بفائدة .

والجاحظ يقصد انه عرف ابن أبي دؤاد في شرح الشباب
وشاهد منه مكارم الأخلاق في الوقت الذي كان به سلطان
الهوى واللهو يعيث بأخلاق أمثله من الشباب المسلمين
للأهواء وكان سكر الشباب والجدة للذين ينقصان المال والمروءة
مستولين على تصرفاتهم يحيلان علاقتهم مع المجتمع خصومة .

كأن الجاحظ أخذ هذا المعنى من قول الشاعر :

ان الشباب والفراغ والجدة
مفسدة للمرء أي مفسدة

بل يغلب على ظني ان الشاعر أخذ هذا المعنى من أبي عثمان .

٣ - ويميل الله عقلك :

ألا ما أجل وألد وأسمى وأنعم فتدا المعنى الذي أرى
حق طبعه محفوظاً للجاحظ !

نعم ، العقل وكيل الله في الإنسان إذ هو موجود غير محصور بحجة - كما أن الله تعالى عن الحصر والحيث - هذا العقل العجيب الذي جعله الله في الحيوان غريزياً محدوداً أو محسوساً (كعقال الجمل - اعقلها وتوكل) وفي الإنسان معنوياً يعقله عن التجاوز أي يحول بينه وبين التجاوز كما يحول عقال الجمل بينه وبين انتقاص شجر المجاورين مثلاً .

هذا الإنسان - المخلوق العجيب - الذي انفرد دون سائر المخلوقات بالتخير في تصرفاته ، قد يدرك مهمة وكيل الله فيه ، فيقف عند حدوده ويصدع بتوجيهه وقد يضع حبله على غاربه غير آبه لرقابة الله ولو كيّله ضارباً بها عرض الحائط مع قدرته على كبح جماح نفسه وكفكفة تصرفه .

وهكذا نرى - وكيل الله في الإنسان - حارساً أعزل لا يقف دون التصرفات المشبوهة وإن استطاع أن يحمل بما دعواته خيراً ووجداناً ومروءة ، عقارب لداغة وثعابين نهاشة ، قد لا يشعر بها من تبدل احساسه وقال بلسان حاله

أنا الفريق وما خوفي من البلبل !

٤ - الغبطة نوع من الحسد غير المدموم إذ الغابط من غنى

مثل نعمة أخيه مع غنى كدوام النعمة على أخيه ، فكان الغبطة نوع من التسابق وضرب من التنافس في المكارم !

٥ - الرائد في الأصل هو الذي يرسله قومه أمام ظعنهم (قافلة سفرهم) ليرتاد المواقع الغنية بالماء والكلأ والعشب والحشيش) كيلا ينزلوا أرضاً مواتة مجدبة أو أشد جديباً وجفافاً من الأرض التي قارروها فتتضاعف كارتهم وفي الكلمات النبوية (الرائد لا يكذب أهله) بل لو كذبهم لدفعهم - ودفع نفسه - شطر كارثة محققة .

وقد تطلق كلمة (رائد) اصطلاحاً على مقدم القوم وقائدهم وموجههم وطليعتهم وعمود جهتهم الاجتماعي أو القومي أو الروحي .

٦ - النائبة : المصيبة ، الكارثة ، النازلة وجمعها نوائب ونائبات .

٧ - عجمت مذاهبك أي بدت أمرك واختبرت حالك ، يقال : عجم عوده أي عصفه ليعلم سلابته يعني أنه جربه وعرف دخائله وما تنطوي عليه نفسه وما يدور بخلدّه ويتلجلج في جنائيا نفسه وما يخفي صدره .

٨ - حذفنا من هنا كلمة (اليك) ليستقيم المأمنى حيث

القوم ، تنازعوا ثلاثون... وفي شل (من لا يحياك فقد عاداك) .

١٦ - زكنت : فطنت ، تفرست ، فهمت ، زكنت منه اي علمت منه عداوة واستئشفت محاولة الفدر ، والمضى الاجبالي للبيت : علمت من اسرار خصامي مثل الذي علموا من اسراري وفطنت وتفرست وفهمت من اسرارهم مثل الذي علموا من اسراري وبذلك أصبحت حذراً غير هتأب ولا وجل من مفاجاتهم ولذا لن يستطيعوا ان يخذلوني على حين غفلة وان كنت ادا جيبهم (أظهر لهم الصداقة في الساني) .

١٧ - تقول : صعد ، بيد انفسك توقدت (صعدت) سلطتم الفضائل فعارفت (كدت تبليغ) أعلاه فأصبحت منقطع القربى .

١٨ - وأقنن : واجدر وفي الكلمات النبوية (من باع داراً او عقاراً ولم يضع ثمنه في مثله فهو مال قنن) اي محسوط بالفرط والضياع وجدير بعدم المبالاة .

١٩ أسومك : اكفك . التعلية : الصلابة . والزمانة :

الوقار ، يريدانه صلب المود ثابت لا يتزعزع جليل وقور .

٢٠ - يرينه : يكفه ، يريدان الهائل يسك لسانه ويشده بخطام (زمام) ويشكله اي يعرقل سيره وينهه حر كنهه في ما لا ينبغي به الحركة .

كان بهذا النص (تألفت لك كتابي هذا اليك) ولا يخفى ان هذا من تعدد النسخ واخطاء النسخ كما ذكرنا هذا في مطلع هذا الكتاب .

٩ - نجنة : وقاية وسيراً وفي القرآن الكريم (اتخذوا أيمانهم جنة) .

١٠ - الأماني : طلب شئ لم تقدم أسبابه ونفذ عده ، أما الأمل فطلب شيء مبدئنا لخصوله ، فزرع القمح في الموسم وانتظار الاستابل أمل وتخطيط المزارع وقصوره في الزرع مع انتظار الموسم اماني .

١١ - الاستطراف : طلب الطرف وهو الحديث الجديد المستحسن .

١٢ - تتوق في مطعمه أو ملبسه... تأنتى وتجود وطلب الاحاسن وتعمد الاتقان .

١٣ - تبار القوم (بتشديد الراء) أبر بعضهم بعضاً مثل تماطفوا وتهاودوا وقواصوا... .

١٤ - الحانة : جمع خائن ، تجمع على خائن وخانة وخونة .

٢١ - لسع الدُّبُر أي الزنابير أو النحل ، والإشفا : المحرز
أو المثقب وجمعه أشافي .

٢٢ - الدن : وعاء كبير من خزف يوضع به الزيت أو الخمر
يقول الحريري يوصف البصرة .

فصل ابن شئت فيها من يصلي
وإمسا شئت فادن من الدنان

٢٣ - ختر الأمانة : خانها يريد هنا أنه أفشى السر وأذاعه .

٢٤ - الطامور والطومار : الصحيفة والجمع طوامير .

٢٥ - هذا النص ليس في سفر سليمان أو سواء من أسفار
العهد القديم ويظهر ان الجاحظ سمعه أو رآه في كتاب ما فنقله
قائلاً (والعهدة على الراوي) .

٢٦ - القتيت : الكذب والنميمة .

٢٧ - العنتته : المشقة وتكليف ما لا يكاد يطاق .

٢٨ - قلاه : بغضه ، وفي القرآن الكريم (ما ودعك ربك
وما قلى) أي ما تركك وما بغضك .

٢٩ - الأشنع الأبلق : كناية عما ليس واقعياً من الأخبار

أو ما لا يمكن الحصول عليه .

٣٠ - النبوة : الخطيئة ، وتصريحة القطيعة ، (لكل

صارم نبوة) أي خطيئة وعدم إسبة .

٣١ - الدغل : الحقد الباطن . يتنس النقائص أو اختلافاها .

والتغل : الافساد .

٣٢ - اخرج الخشبة من عينك أولاً ... هذا هو النص

الانجيلي وإن ذكره الجاحظ بالمعنى كعادته .

٣٣ - العضية : الكذب والسبحة والسحر باللسان وهو نوع

من التخدير أو الغش أو التوجيه المتلوي .

٣٤ - قصبه : شتمه .

٣٥ - القبقبة : كثرة الكلام في ما لا يعني ورجل قبقاب

مثل ثثار وزناً ومعنى .

٣٦ - المرّة : القوة ، وفي القرآن الكريم (ذو مرة) :

صاحب قوة . قال محمود سامي بهاء البارودي الشاعر والبطل

العربي المصري بمنح أمير المؤمنين سيدنا الإمام علي بن أبي

طالب واصف موقفه وموقف الرسول الأعظم سيدنا محمد صلى

الله عليه وآله وسلم منه :

قال النبي لأعطي رايقي رجلاً

بحيني ويحب الله ذا الكرم

ذات مرة (يفتح الله الحصون على
يديه ليس بفرار ولا نرم
وما أتى الصبح إلا والزعم على
جيش العدو علي رافع العلم

٣٧ - هذا المقطع من السطر الرابع حتى الرابع عشر
استوقفني طويلاً وعادت قراءته بتأن وعمق مراراً إذ اشتمل
على إشارات اتخذها الجاحظ كوسيلة للتنصل .
نفذت لمغزى بعضها من ثغرة شهرتها التاريخية كقوله :

١ - واعنت على قتل المعتصم :

يعني المعتصم العباسي بن هارون الرشيد، ويظهر ان الاعانة
على قتله كانت حينذاك جريمة في عين الشعب لشجاعته ونجدته
لا سيما في المواقع الحاسمة التي أشار لها أبو تمام الجوراني .

٢ - وغضبت لمصرع الأفشين :

وهو الثائر البوذي الذي كان يزعم لنفسه الألوهية تجسداً

أو تجلياً أو تجسماً أو ثانياً أو انشاقاً أو فيضاً أو سوى ذلك
من الفلسفات التي كانت ولا تزال تدور في أفكار رافعي
المخلوقات الى مصاف الخالق .

طبعاً الغضب لمصرعه كان - ولا يزال خطيئة - إذ امتدت
ثورته الجاحظة من التركستان للدين وكاد يستنفذ قوة الدولة
ويشغلها عما سواه .

أما قوله : ورفست حمزه ، فيعني ابن عبد المطلب في
استشهاده الشهير وقص هند (آمنة الأكباد) والدة معاوية
وزوجة صخر وجدة يزيد .

وأما بقية الاشارات التي أوردها الجاحظ في هذا المقطع
فقد فاتني معرفة القصد منها إذ ليس لها من الشهرة التاريخية ما
يساعدني على التنقيب للظفر بها .

٣٨ - قتايع : رمى نفسه دون اثبات .

٣٩ - وامق : محب .

٤٠ - لحن القول هنا، ما يكاد ينطق به الوجه حين التكلم
باللسان إذ قد يقيم اللسان دليلاً على الصدق والمودة والاخلاص
ولكن الوجه بتبسمه الظاهر التكلف يصرح بما كمن في الصدر
ودفن في اعماق النفس .

وكثيراً ما شار الجاحظ لهذا بما قرأه في وجوه حاسديه

فقال (وما لقيت حاسداً الا تبين مكنونه بتغيير لونه وتحوص وجهه) ولكن الامتحان يظهر حقيقته وينزع أرديته .

٤١ - السّنى : الرجل الرفيع أو جواره ، والمقصود لا يحول دون هلاكي ان يحيرني رجل رفيع المنزلة .

٤٢ - المفازة : الصحراء ، وهي في الأصل مهلكة ولكن دعيت مفازة من باب الأضداد أو التفاضل كما دعيت الجمال المسافرة قافلة (اي عائدة) ويقصد بمفازة المهلب عفوه وحلمه .

٤٣ - صاحب الزرق : صاحب الخدعة .

٤٤ - هذا المقطع كالمقطع ذي الرقم ٣٧ اشاره الجاحظ لما نعلم من قصص زياد بن سمية أو ابن ابيه وقصص الحجاج بن يوسف وابن العاص وابن هند وقيصر في قصة خدعة (زينب : الزياء) وحوادث الاسكندر في معركته الحاسمة التي دارت رحاها على ملك فارس . دارا : داريوس وختها الجاحظ بما اشتهر من رقى الهند وسحر بابل .

والرقية كلمات يرددنها الكاهن أو العراف على احد المصابين

بمرض فيزعم المريض لشدة تسلط الهم والايحاء انه تماثل للشفاء .

ومن أجمل ما نرى ان عبد الملك بن مروان اصيب بداء الأنسر فقال (هل من راقٍ) فأحضر له الراقي بديح وشرع يقرأ وينفث ويتمم بكلمات كالطلاسم .

قال عبد الملك احس بالشفاء فقلت يا بديح اكتب لنا هذه الرقية خشية ان يعاودنا هذا المرض ليلاً فاجاب : عجل بجائزتي ، وما ان اخذ بديح اربعة آلاف درهم حتى شرع يقيه قائلاً .

(الطلاق يلزمني أين كنت اقول :)

نبئت ان فتاة كنت اخطبها

عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول
اما السحر فهو عمل بالخفاء او عمل بلباقة او توجيه باللسان
لما يضر وما يزعمونه من الكتابة التي تؤثر في محبة فلان او بغض فلان فلا أصل له .

حدثني صديقي يدعى الشيخ أحمد بما نصه :

طرقت بابي امرأة وقدمت ليذة طالبة سحر تسيطر به على زوجها وما ان حاولت اقناعها بأن هذا فن لا أصل له وان سيطرتك على الزوج لا سبيل لها إلا مكارم الاخلاق حتى

أصرت وزعت انني احاول طلب مزيد من المال .
وهنا اخذت الليرة وتناولت قلماً ووريقة وكتبت ما يلي :
(الذي يصلح يصلح حاله والذي يفسد يفسد حاله ، الشيخ
احمد اخذ مصاري يشتري خبز لعياله) .

ثم ناولتها (السحر الوريقة) وذهبت الى حيث ..

٤٥ - هذا المقطع من (ان الكلام .. حتى من سيلم) جيد
المعنى ولكن ليس متناسباً مع السياق ويظهر انه دخيل .

٤٦ - بهذا المقطع اشارات لحوادث وأعلام ليست شهيرة
وللقارئ ان يلحقه بمقطعي ٣٧ و٤٤ اما كلمة (ستبديز) التي
لم اعثرها على معنى فتذكرني بالشيخ التركي الذي اخذ يفسر آية
(والسواء ذات الحبك) قائلاً :

السواء ، هي السواء ، وذات بمعنى صاحبة ، أما الحبك فلا
نعرفها نحن ولا انتم ! .

٤٧ - في القوم وكال ، أي يتكل بعضهم على بعض فتضيع
أموالهم وتفسد خططهم .

٤٨ - البخاتي نوع من الجمال ناتج من أب عربي وأم فارسية
وهو نوع شديد القوة سريع الرمل .

٤٩ - الكندرة (بفتح الكاف) مكان يحتم به البازي ليرقع
عن الأرض يعني بذلك المكان الذي يأوي له البازي أو يسقط

فيه حين يصيبه الوهم ، وهو حين يرمي به عتق الدابة
فيطرحها ، يقال (أوهق فلان نفسه : رماها بالوهم) أي
أهلكها ودهورها .

٥٠ - احتجن المال الذي بيدي احتفظ لنفسه بشيء

منه .

٥١ - عجم العود : كناية عن التجربة والاختيار كما مر .

٥٢ - لعله سقط (ما) والأصل (لعله ما) يحسد عليه .

٥٣ - كذا في الأصل ولعلها إذا أعطى .

٥٤ - لعلها جهة أو قصبة .

٥٥ - المعلنس والمطور بنى واحد ، يعنيان المجرّب

الخبير .

٥٦ - النوكي الحمقى .

٥٧ - النقريس الدليل الخاطئ يعني هنا العلامة المدقق .

٥٨ - بياض في الأصل بمقدار كلمة .

٥٩ - الرّبوض : القرى الكبيرة ويقصد هنا سكانها .

فهرست الكتاب

صفحة	
٥	مقدمة
٢٣	فلسفة المعاد والمعاش
٦٣	كتمان السر وحفظ اللسان
٩٥	فلسفة الجد والهزل
١٣٩	فلسفة فصل ما بين المداوة والحد
١٧٣	شرح الكلمات

AL-MIS TAFI, (M)